مواصفات النموذج الكامل في ضوء سورة التحريم: الأسرة النبوية نموذجا

جميلة بلعودة*

Characteristics of a Complete Family Model in the Light of *Sūrat al-Taḥrīm*: The Prophetic Family as a Model

Jamila Belaouda **

This study aims to analyze the characteristics of a complete family model in the light of *sūrat al-Taḥrīm* and mentions the criteria that Allah set for the Prophet's family to amend marital legislative behaviour within the limits of piety and standard process. The Prophet's family is the supreme model to build Muslim community and uplift it from doctrine to the level of moral chastity. The directives mentioned in the *sūrat al-Taḥrīm* were directed to the Prophet's family and used it to recommend a moral and intellectual model for ideal Muslim families. This shows that the aim of the Qur'ān is to lead Muslims to ideal family and create awareness about family management and its role in preserving moral values. Therefore, it is important to pay special attention to the implementation of the Prophet's family model (as directed in the Qur'ān) in society. The researcher conclude that the contextual interpretation of the *sūrat al-Taḥrīm* provides the characteristics of a complete family model through elaborating the distinctive features of charity, as it creates awareness, corrects the mothers of the believers (the Prophet's wives), and guides them to the preferred criteria (as a role model for a Muslim family). The researcher recommend self-restraint and behavioural discipline that will be in the context of piety, and adherence to the moral value.

Keywords
Family, Prophet, Role Model, Qur'āni Text, Moral Values.

---

* دكتوراه في القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية بماليزيا ٢٠١٩م.

** The Author Completed Ph.D from University of Malaysia, 2019.

مقدمة

عالج القرآن مبحث الأسرة في سورة التحريم بشكل ملفت، فقد بدأ بالحديث عن الأسرة النبوية، وتعلقها بالسلوك النبوي، بوصفه نموذج القدوة، الذي تتناسل من جذره عناصر الصلاح والاستقامة. وقد اكتسبت الأسرة النبوية أهمية متميزة، بوصفها النموذج الأخلاقي، الذي يؤطر الأسر المسلمة في مستوياتها الاجتماعية والأخلاقية، ويعزز منظومة القيم في الواقع بما يحفظ الكيان الحضاري للأمة. ومن ثم، يؤسس لكل المقومات التي تحفظ الأسرة المسلمة. ومن بين القضايا التي عرضت لها السورة، بعض التحديات التي واجهت البيت النبوي على الصعيد الواقعي. نطالع في السورة التركيزعلى الشأن الأسري في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تقدم أساسيات القدوة للأسرة المسلمة، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾[1] إنَّ المتأمل في السياق، يلاحظ أنَّ التوجيهات الواردة، موجهةً أصالةً إلى البيت النبوي، باعتباره نموذج القدوة على خط الفكر والعمل. كما تعكس مدى واقعية القرآن في توجيهاته الحكيمة للأسرة النموذج، بقصد تنمية الوعي بالدور الوظيفي للأسرة في المحافظة على القيم. فقد أعاد تأطير الوظيفة الرسالية للبيت النبوي ومتطلبات القدوة فيه، وتجلية أهداف الأسرة، حتى تتدرب على التعامل الصحيح مع منهج الله. وما يستتبع ذلك من تبعات المسؤولية، والصرامة الإيمانية في الانضباط على الحق. ونظرًا لأهمية هذا الموضوع وحيويته، فقد وضع القرآن هؤلاء الزوجات على محك الاختبار، حتى يبرز قيمة الزواج بالنبي وتبعاته الأخلاقية، وما تتطلبه في واقع الفكر والسلوك، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[2].

وفي ذات السياق، نلاحظ أنَّ القرآن أعاد بناء الأسرة النبوية في إطار الإيمان بالله واليوم الآخر،

---

١ - سورة الأحزاب، الآية: ٦.

٢ - سورة الأحزاب، الآية: ٢٨-٢٩.

واختبر تعلقات الإرادة الزوجية بالله ورسوله. ومن هنا، يعيد رسم معالم التفكير من خلال ربط معادلة الدنيا بالآخرة، وطرح تساؤلات جوهرية حول أبعاد هذا التزاوج، ومن ثم، إعادة بلورة التصور الصحيح حول مقومات الأسرة في المنظور القرآني. ومن هذا المنطلق، يطرح المعادلة الدنيوية وزينتها، مقابل المعادلة الأخروية، معتبرًا الأسرة النبوية مسؤولة على خط الإيمان ومقومات الصلاح في حياة المسلمين. وبهذا تصبح معيارًا للحياة الأخلاقية السامية. لم تعد الأسرة لقاءً للإشباع الغريزي، وتلبية للاحتياجات الذاتية، وإنّما امتدت قرآنيًا بسماتها العبادية وأهدافها الكونية. وبناءً عليه، فقد وضع الله هؤلاء الزوجات في اختبار أخلاقي لمعرفة جوهر النساء، اللواتي انتسبن للأسرة النبوية. ومدى استعداداتهن الروحية للتجاوب مع المتطلبات العبادية. يؤكد ابن عاشور أنَّ: "افتتاح هذه الأحكام بنداء النّبي تنبيه على أنَّ ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به، وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب النبوة"[٣]، والاعتبارات التي تفرضها طبيعة الانتساب للنبي عليه السلام. وبناءً على هذه المعطيات، فإن هذه الدراسة تهدف إلى الوقوف على اختبار الإرادة العملية للأسرة النبوية، ورصد مواصفات الخيرية في النموذج المثال، ثم بيان القيمة الإيمانية للخصوصية الزوجية، كما تطرحها سورة التحريم، ثم نختم ببيان مظاهر الاختلال في تمثل مواصفات النموذج الكامل. وتتجلى أهمية هذه الدراسة، في كونها تقرر أنَّ تمحيص الفكر والسلوك أصيل في القرآن، فقد خضعت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لاختبار الإرادة العملية بعد ما اخترن وجهة الله ورسوله مقصدًا وغايةً، لمعرفة مدى الثبات على مقتضيات الإيمان والطاعة، وتفاعل المبدأ مع السلوك، وتصفية الذوات من الدوافع الذاتية غير المؤطرة. وهذا يكشف عن مصداقية هذا الاختبار وواقعية هذه النماذج، وهي ترتقي بذاتها لمواصفات الخيرية الجامعة لشرائط الكمال.

كما تقررالآيات حقيقة مفادها: أنَّ القرآن لا يغطي على الأخطاء، ويتعامل مع الأحداث في

٣- انظر: محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٩٤م) ج٢١، ص٣١٦.

إطار سنني لا قيمة للقرابة، مهما بلغت وصلتها بالأنبياء والرسل، ذلك أنَّ القرآن ينشد الفكرة الثاوية خلف الخطاب، لأنها المظهر الأرقى لصحة جميع الأنساق المجتمعية، وإعادة تصحيح معايير الأفضلية في وعي هؤلاء الطاهرات لبلوغ الصورة النموذجية للكمالية المشهودة، فلا قيمة للوصلة الزوجية إذا لم تتأسس على السمات المميزة لنموذج الخيرية، وهذه الصلات تكتسب قيمتها في سياق المنهج وأحكامه. وبالرغم من أهمية الأسرة النبوية، ومستخرجاتها الأخلاقية والحضارية، إلَّا أنّها لا تزال تطرح في سيقات وعظية، بعيدة عن أي توجه بنائي، يرصد حقيقة هذا البناء، بما يفتح النظر لمزيد من البحث لاستجلاء أوضح لمكتنزات القرآن في التعامل مع الأسرة النموذج. وحسب علمي المتواضع، فإن الموضوع لم يناقش بهذا الطرح الجديد، فجاءت هذه الدراسة المتواضعة، استكمالًا للجهود، وتدعيمًا لأي طرح جديد، يفتح مغاليق القرآن على دلالاتٍ لا تزال مخبوءة.

المبحث الأول: اختبار الإرادة العلمية للأسرة النبوية ومواصفات الخيرية والقيمة الإيمانية للخصومية الزوجية في ضوء سورة التحريم

المطلب الأول: اختبار الإرادة العملية للأسرة النبوية في ضوء سورة التحريم

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ ۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ ۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾[٤]. وقال أيضًا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ ۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا

٤- سورة التحريم، الآية: ٠١/ ٠٥

فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (٥) (٦). من الجدير بالذكر، أن سورة التحريم مدنية، وعدد آياتها اثنتي عشرة آية، وسميت بهذا الاسم، لما وقع من تحريم النبي لبعض ما هو مباح له. وتسمى سورة النبي لافتتاحها بذكر النبي، وما اختص به من الحديث عن بيت النبوة، ومعالجة بعض الإشكالات المتعلقة بالعلاقات الزوجية في الأسرة النبوية. جاء في **البرهان**: "ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة، وهو تسع وعشرون سورةً، فأول ما نزل فيها سورة البقرة ثم الأنفال، ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النّساء، ثم "إذا زلزلت" ثم الحديد ثم محمد ثم الرَّعد ثم الرحمن ثم (هل أتى) ثم الطّلاق ثم (لم يكن) ثم الحشر ثم (إذا جاء نصر الله) ثم النّور، ثم الحج ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات، ثم (يا أيها النبي لم تحرم) ثم الصف ثم الجمعة ثم التغابن ثم الفتح ثم التوبة ثم المائدة، منهم من يقدم المائدة على التوبة"(٧).

---

٥ - سورة التحريم، الآية: ١٠/ ١٢

٦- ورد في سبب نـزول هذه الآيات، ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة: أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْت جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ: أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: "لاَ، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ" فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ التحريم، الآية: ٠١ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ سورة التحريم، الآية: ٤ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾[التحريم: ٠٣]، لِقَوْلِهِ: "بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا" محمد بن إسماعيل أبوعبد الله البخاري، **الجامع الصحيح**، باب: لم تحرم ما أحلَّ الله لك، رقم الحديث: ٥٢٦٧، (دار طوق النجاة، ١٤٢٢م) ج٧، ص٤٤، وفي رواية أخرى للبخاري عَقِبَ هذه الرواية مباشرة أن التي شرب النبي ﷺ عندها العسل حفصة، وأن اللاتي تواطأن عليه عائشة وسودة وصفية. السبب الثاني: ذكر الإمام الماوردي في تفسيره أنها مارية أم إبراهيم خلا بها رسول الله ﷺ في بيت حفصة بنت عمر وقد خرجت لزيارة أبيها فلما عادت وعلمت عتبت على النبيﷺ فحرمها على نفسه إرضاء لحفصة وأمرها أن لا تخبر أحداً من نسائه، فأخبرت به عائشة لمصافاة كانت بينهما وكانت تتظاهران على النبي أي تتعاونان فحرّم مارية، وطلق حفصة، واعتزل سائر نسائه تسعة وعشرين يوما، وكان جعل على نفسه أن يُحرّمهن شهراً، فأنزل الله هذه الآية" علي بن محمد الماوردي، **النكت والعيون** (بيروت: دار الكتب العلمية) ج٦، ص٣٩.

٧- أبو عبد الله بدر الدين بن عبد الله الزركشي، **البرهان في علوم القرآن** (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م) ط١،ج١، ص١٩٤.

إنَّ المتأمل في هذه الآيات، يلاحظ أنها أعادت تأطير العلاقة الزوجية، وترتيب الكيان الداخلي للأسرة النبوية، وتعديل السلوك الزوجي؛ بما ينسجم مع معطيات الحق، ومن ثم تأسيس منظومة أسرية، تستند على فلسفة تشريعية توجهها نحو ما يحقق أهداف الرسالة. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٨]. من الزاوية الأخلاقية، فإنَّ اختيار نساء النبي وجهة الله ورسوله، يضعنا أمام تساؤل جوهري، أن هذا الاختيار لا بد له من محك، تختبر فيه الإرادة على مدى الثبات على الإيمان ومقتضياته، فهل نجحت أمهات المؤمنين في هذا الاختبار، أم لا تزال الرغبات الدنيوية تؤثر في النفوس وتصنع حراكًا، تتحكم في بعض مفاصله الغيرة، وتوجهه أهداف ضئيلة لا ترتقي إلى أخلاقيات بيت النبوة، ومنطلقاته الإيمانية الداعية للمنهج والحكمة؟ هنا يتوجب علينا، أن نتحدث عن الأسرة النموذجية، التي انتقاها الله لتكون محلًا للقدوة. وقد أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على تربيتها الروحية والأخلاقية، حتى تسمو بها فلسفة الاقتداء. وأعطى الله تعالى لزوجات النبي مرتبةً ساميةً، عندما دخلن على خط المفارقة لبقية النساء، ورفع قدرهن إلى مصاف أمهات المؤمنين. وبالرغم من جواذب الإيمان التي تسري بين جنباتهن، وهن رمز للطاعة، فكل هذا لا يعطينا مبررًا من الوجهة الفكرية، لانتقاد بعض التصرفات الزوجية، إلّا في الإطار الذي يعطينا الحق، أن ننظر في اختبارات الحياة، والخيارات الأخلاقية التي وضع الله فيها الأسرة النبوية، وهن صبغة بشرية، تتجاذبهن دوافع في عمق الفطرة. ويكفي أن الله وضعهن في محل الاختبار حتى ينصهر هذا النموذج للتقوى. ومن هنا، سوف نجد التوجيهات الصادرة من الله، تعكس مدى واقعية النماذج القرآنية، التي ارتقت بذاتها إلى الصورة النموذجية المثلى.

وبناء عليه، فإنَّ افتتاح العتاب بوصف النبوة، "فيه من التشريف والتكريم والتطمين، على

٨ - سورة الأحزاب، الآية: ٢٨/ ٢٩.

أن ما يذكر بعد لا يؤثر على مقامه العالي، فهو النبي المكرم، ولو بدأ العتاب بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾، لفرق قلبه عليه السلام، ولترك أثرًا كبيرًا، ولو جاء الترفق بعد ذلك، وهذا أسلوب الحبيب الذي لا يريد إلحاق أي هزة عاطفية في قلب حبيبه مهما كانت الهزة مغلفة بالأساليب الرفيقة"[٩]. وقد جاء العتاب في صيغة تلطف، ومن الأمورالمخففة لآثار العتاب، ذكر السبب الدافع إليه في قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وبيان أن هذا السبب "غير معتبر في الامتناع والتحريم، فليست ممّا يوجب مراعاته بين الأزواج، إذ لم يكن هضم لحقوقهن، فهناك من الأشياء الدافعة للغيرة ينبغي أن لا يؤبه لها، وعذر النبي في فعله هو جلب رضى الأزواج، وهذا من حسن معاشرته معهن... لكن الغيرة التي نشأت بينهن، إنَّما هي معاكسة بعضهن بعضًا، وهذا ممّا يخلُّ بحسن العشرة بينهن، فأخبره الله أنَّ اجتهاده هذا غير معتبر وعاتبه على ذلك"[١٠]. إن المدقق في الخطاب، يرى جليًا تقدير الله لشأن نبيه وما يحمله من دلالة، لما ينبغي أن تكون عليه زوجاته من أدب المعاملة. يستشرف الله هذا المعنى، حتى يربي الأمة على حفظ مقام النبوة. ولم يعط الله لزوجات النبي الحق في محاولة إخضاعه إلى الإرضاء الدنيوي على حساب المباح. هذا يعني أنَّ أدب النبوة، يستدعي مزيدًا من التوقير والإجلال، والجرأة على مقام النبوة، قد تكون سببًا في إحباط العمل، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١١]. إنَّ مراعاة النبي لزوجاته من باب إظهار حسن العشرة، وما يظهر من هذا الإخضاع لا يعكس مصلحةً حقيقية، لم تنبن "رغبتهن على مصلحة معتبرة؛ بل مطلق الحسد من ضرائرهن، فهذا لا ينبغي أن يراعى في مبررات الامتناع"[١٢].

ومن هذا المنطلق، يكشف النص عن ملمح من العتاب للنبي الذي حرّم على نفسه أمرًا

٩- مصطفى مسلم، **الأسرة المسلمة في ضوء سورة التحريم**، (مكة: دار المنارة، ١٩٩١م) ص٢٢.

١٠- المرجع نفسه، ص٢٢.

١١ - سورة الحجرات، الآية: ٢.

١٢- المرجع نفسه، ص٣١.

مباحًا، يقول سيد قطب: "ما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحلّه الله له من متاع. والرسول لم يكن حرّم العسل أو مارية، بمعنى التحريم الشرعي، إنما كان قد قرر حرمان نفسه. فجاء هذا العتاب، يوحي بأن ما جعله الله حلالًا، فلا يجوز حرمان النفس منه، عمدًا وقصدًا إرضاءً لأحد. والتعقيب: والله غفوررحيم، يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف"(١٣). قدم القرآن الحل من خلال تشريع كفارة اليمين، وأما من الوجهة الفكرية، فقد أعطى أهمية تشريعية لهذا الوضع، وأعاد تأطير السلوك النبوي وتعديله. ومهما كانت دوافع هذا الإرضاء (حسن العشرة)، فإنَّ الله لم يعط لزوجاته الحق في حمله عليه السلام على هذا التضييق، الذي يتجاوز الحقوق المقررة شرعًا. وبناءً عليه، فإنَّ التعامل مع مقام النبوة أمر في غاية الدقة، ذلك أنَّ "أقواله وأفعاله وتقريراته تشريع للأمة، فلو ترك الأمر لأصبح تشريعًا للأمة من بعده، ولصار النّاس يمتنعون عن المباحات، أو يحرمونها على أنفسهم ابتغاء مرضات بعضهم بعضًا"(١٤). والمتأمل يدرك أن السورة تعالج قضية مركزية، وهي حفظ الخصوصية الزوجية، قدمها عرضًا مجملًا، وغيّب التفاصيل لطبيعة هذه الأسرار، وهذا يعطي مؤشرًا على تربية المسلم في كيفية التعامل مع الواقع واختلالاته تبعًا للأخلاقية القرآنية. وعزوف الله عن الحديث عن طبيعة هذا السر، يعني ضرورةً، أن الله الذي تكتم عن السر النبوي، يدعو الأمة إلى التأدب بعدم السؤال عن الخصوصية، والتطلع لمعرفة المستور لمزيد من الضبط والحماية للشأن الأسري، والمحافظة على العلاقات الزوجية. يظهر لنا، أنَّ الأدب الإلهي في التعامل مع هذا المعطى، يعزز قيمة السر وأهميته، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(١٥)، ولا يفصح عن طبيعة هذا السر تأدبًا بأدب الله، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ

١٣- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، **في ظلال القرآن** (بيروت: دار الشروق، ١٤١٢هـ) ط١٧، ج٦، ص٣٦١٥.

١٤- مصطفى مسلم، **الأسرة المسلمة في ضوء سورة التحريم**، ص٢٣.

١٥ - سورة طه، الآية: ٧.

بَعۡضٖ﴾[١٦]. ومن المعلوم أن السر: هو "الحديث المكتم في النّفس"[١٧].

ومن هنا، تغدو طبيعة القرآن أكثر مرونة في التعامل مع جوهر الفكرة، لمعالجة القضية المطروحة، والابتعاد عن الذاتية. حيث قام بتحليل الموقف والسلوك المترتب عليه. ودراسة الفكرة الثاوية خلفه، والمتمثلة في إشاعة السر. والأصل فيه التكتم. ولهذا يربي الله النفوس حتى ترتقي بذاتها عن التدخل في الخصوصية الذاتية، وينأى بالأمة عن جميع التشوهات التي تضرب صميم العلاقات الزوجية. ونظرًا لما في هذا الإفشاء، من عواقب خطيرة على مستوى الفكر والسلوك. وعدم توقير لمقام النبوة وقواعد الزوجية، بغض النظر عن الدوافع الباعثة عليه.كما يظهر تقدير الله للذات النبوية، حيث رفعها إلى ما يليق بها قدرًا وتعظيمًا، وينأى بها عن هذا التفصيل، فيحفظ سر النبوة، ويخفي هوية المتظاهرات إكرامًا لمقام النبوة، وصونًا لأمهات المؤمنين، حتى ينمي جمالية الذوق، ويزيد في رصيد الأخلاقية، ويعزز العفة في الكلمة، ويتذوق اللسان الصمت حكمةً ومقصدًا. وفي ضوء هذه المعاني، يهدف القرآن إلى التركيز على معالجة الخطأ وإعادة تعديل السلوك الزوجي، ووضعه في السياق الصحيح. وتربية الأسرة المسلمة على الانضباط والمسؤولية إزاء ميثاق الزوجية. لأنَّ إفشاء الأسرار خيانة ونقض للأمانة، وضيق في الأفق والرؤية، وغياب الطاقة الروحية الباعثة على الصبر، وقلة تقدير لعواقب الإفشاء، خاصة لما يتعلق الأمر بالانضواء تحت غطاء الزوجية الاقتدائية. وقد عدَّها القرآن من العهد المسؤول عنه، لقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[١٨]. وبناء عليه، فإن كان في إفشاء الأسرار ضرر فهي حرام، وإن لم يترتب عليها ضرر، فهي لؤم. والمتأمل في طريقة عرض القرآن لهذا الأمر، يلاحظ أن هذا الاهتمام، ازداد لكونه يتعلق ببيت النبوة، وهو مركز إشعاع حضاري، تستمد منه الأمة أصالتها الروحية والأخلاقية، ويمثل

---

١٦ - سورة التحريم، الآية: ٣.

١٧ - الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن** (دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ) ط١، ج١، ص٤٠٤.

١٨ - سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

جواذب الحياة المستقيمة، وتستنبت فيه معاني الخير والرحمة والامتداد، وتزرع فيه قيم الفضيلة في الذرية المسلمة.

تتجلى أهمية هذا الخطاب في كون الأسرة النبوية، نواة الأسر المؤمنة، ومنها تستقى أحكام الدين ومنهج الحياة، وضوابط الأخلاق. وتنسج القيمة في سعيها، وتؤطر حركة الحياة بأهدافها الأخروية، الناظمة للمسيرة الوجودية. إنَّ الحراك الذي شهده بيت النبوة في الواقع، وإن كان يمثل القدوة للأسر المسلمة، فإنه لا يعني أن هذا البيت المؤطر بقيم الإيمان والتقوى، لم يشهد اهتزازات عنيفة في معترك الواقع، وما تعرضت له سورة التحريم، هو جانب من هذا الحراك. بما يؤكد موضوعية القرآن في معالجاته النقدية للفعل الإنساني، إذا فقد قيمته الفكرية والصواب المنوط به، بغض النظر عن الأشخاص الذين صدرت عنهم الأخطاء ونسبتهم للنبي عليه السلام. ومن المفترض أن ينزه هذا البيت الطاهر عن الحيل الزوجية ودوافعها النفسية، ولا يتحول إلى حلبة صراع بين ضرائر تلعب الغيرة الدافع الأقوى وراء هذه المناوشات في الواقع، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾[١٩]، يؤكد الإمام الغزالي أنَّ: "بيت النبوة ليس مسرحًا للغيرة والتحاسد، وإنَّما هو صومعة عبادة، ومجال إقبال على الآخرة، وتفان في مرضاة الله، ولعل ما ختمت به السورة، تلويح شديد القسوة، لمن شاركن في إغضاب الرسول، وأثرن الحزن في نفسه"[٢٠]. ومن الجدير بالملاحظة، أنَّ التظاهر على النبي، ليس سوى مظهر للارتداد نحو الذات، وتجاوز للرتبة التي أكرمهن الله بها. هذا كافٍ جدًا، أن يكون الدافع الأقوى لحماية هذا الشرف، وما صاحبه من امتيازات رفيعة القدر، فقد ميزهن الله على جميع النساء، وأعطين وسام أمومة الإيمان. إن هذا التظاهر جعل الله يحشد القوة الداعمة للنبي، يجلي الله ذلك في قوله:

١٩ - سورة النحل، الآية: ٨٨.

٢٠- محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم** (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠م) ط١١، ص٤٦٨.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٢١].

إنَّ المتأمل في هذه الآية، يلاحظ أن القوى الداعمة للنبي صلى الله عليه وسلم، تجمع أقطاب الجمعية، أولها القطب الأسمى (الله)، ثم الأقطاب الوجودية (الملأ الأعلى والملأ الأسفل)، وهذا الحشد بذاته دلالة على خطورة التظاهر على النبي ومحاولة الاستقواء عليه. وفي ضوء هذا الوضع، فإنَّ الغيرة، وإن كانت كامنة في التكوين النفسي للمرأة، فإن الله قد وضع لجميع الدوافع الذاتية، ضوابط تكبح زمامها، وأعاد تأطير السلوك ضمن حدود الله، حتى لا يخرج عن ضوابط الاستقامة. تعتبرالغيرة من الأمراض المجتمعية، التي تستهدف الحس الأنثوي، ولم تسلم من هذا الدَّاء حتى أمهاتنا الطاهرات، وما وقع منهن من تآمر على مارية أو من شرب النبي العسل عندها، وتنفيذ هذه الخطط بإحكام حتى وصل الأمر أن يحرم النبي على نفسه شيئًا ممّا أحلَّ الله له، وما أعقب ذلك من قرارات نبوية، منها اعتزاله لهن، يقول محمد الغزالي: "وقد آخذهن الله بأمرين: اتفاقهن على مطالبة النبي بالمزيد من النفقة، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التي التزمها، وقد رضين جميعًا بالبقاء معه، عندما أكد لهن أنه ما بدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة. أما الأمر الثاني، فإنَّ النّبي كان لطيف العشرة، لين الجانب، دميث الخلق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجراءة عليه. وكانت الغيرة هي السبب"[٢٢]. ومن ثم، فإن القرآن دعا زوجات النبي إلى التوبة، بعدما انحرفتا عن الخط المستقيم، لما أصاب هذه القلوب الطاهرة من زينة الدنيا، وتوعكت بفعل هذا الكيد والتآمر، يقول تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ﴾[٢٣]، "هو سبب متصل بالشرط، أي إنْ تبتما إلى الله، إذ قد صغت قلوبكما... أي مالت عن قصد السبيل. ويكون الشرط دعوة آمرة بالتقوى، أي توبا إلى الله فقد صغت قلوبكما..فإن تبتما إلى الله غفر الله لكما... فجواب الشرط محذوف"[٢٤]. ولوح بإبدال

---

٢١ - سورة التحريم، الآية: ٤.

٢٢- محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، ص٤٦٨.

٢٣ - سورة التحريم، الآية: ٤.

٢٤- عبد الكريم يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن** (القاهرة: دار الفكر العربي) ج١٤، ص١٠٢٧.

الله له بزوجات خيرًا منهن، إنْ لم يتحققا بشرط التوبة، والتقريع بالطلاق.

ومن هذا المنطلق، اتجه الخطاب إليهن بالنصح وضرورة العودة إلى الحق، وتقدير الأدب النبوي ورفعته، بعدما أوضح الله لهن العناية الربانية، التي تتعهده وتحيط به. إن إعلام الله له عن كشف إحدى زوجاته لسر الزوجية، هذا لا يعني عناية الله بالنبي وآل بيته فقط، وإنَّما يعطي دلالة على خطورة الكشف عن أسرار الزوجية من الوجهة القرآنية، فقد أنزل الله فيها تشريعًا، وانتقى لهذه السابقة الأسرة النموذج، رغم ما اتسمت به من الورع والتقوى، فقد وقعت في بعض الأخطاء بحكم الخصوصية البشرية وضرورة المجاهدة لتحدي عقبات الحياة. يقول تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[٢٥]. يطرح القرآن في هذه الآيات بديلًا مستقيمًا، يعيد من خلاله تأطير البيت النبوي، بعد هذا الانحراف؛ الذي طبع السلوك الزوجي لبعض نساء النبي، ممّا حمل الرسول على تحريم ما أحلَّ الله له، والتضييق على نفسه قصد إرضاء أزواجه. وهذا يعد ميلًا عن الاستقامة السلوكية. فأعاد القرآن تأطير الفعل النبوي من الزاوية الشرعية، وردّ الأمور إلى الوضع المستقيم. نلاحظ أن القرآن في أي توجيه نقدي، لإعادة بلورة الفكرة، أو الموقف أو السلوك، يركز على مسألة العلم والخبرة، وقد أنبأ النبي بمصدر علّمه بهذا الخطأ الصادر عن إحدى زوجاته، ومرد ذلك إلى الله الخبير العليم. هذا يعني أن الله المطلع على الغيب، يحيط علمًا بما يحاك ضد النبي، وهذا ليس سوى ميل عن الحق، وتجاوز لمقام النبوة، وما يستحق من التوقير. ومن هنا، فإن الزوجية لا تعطي لهن الحق في أذية النبي ولو بغير قصد. ولهذا حرّر الرابطة الزوجية من جميع الدوافع غير المؤطرة ضمن حدود التقوى. إنَّ مصدر المعلومة هو الله، وهذا يعطي ثقلًا على قيمتها ومصداقيتها، وجسامة الخطأ الذي وقعت فيه المتظاهرات، وما الوعيد الضخم سوى دليل على الخروج عن ضوابط الاستقامة المطلوبة.

من المعلوم أن القلب له أهمية محورية في السياق القرآني، وقد مالت قلوب النساء عن الحق،

---

٢٥ - سورة التحريم، الآية: ٥.

يؤكد ذلك قوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ ﴾[٢٦]. في الآية إيماء أنَّ ما "فعلتاه انحرافًا عن أدب المعاشرة، الذي أمر الله به، وأن عليهما أن تتوبا ممَّ صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما"[٢٧]. ونتيجة للخروج عن مقتضيات العشرة الزوجية، قدم القرآن العلاج المناسب، ليعيد ترتيب الوضع الأسري، وقد تعلقت التوبة بحق الله، ذلك أن هذا الميل هو انحراف عن أدب الحق، ومقام النبوة، وما يتطلبه من رفعة وإجلال. يقول ابن قيم الجوزية: "فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتّصديق"[٢٨]. ومعلوم أنَّ التوبة تعني إعادة فتح قنوات الإبصار القلبي، حتى ترى الحق، وتستقيم عليه. ولهذا يعتبر القلب مضغة الصلاح، والمحك الذي تختبر فيه النوايا والمواقف والسلوك، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٩]"أي جربها للتقوى ومرنها عليها، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة"[٣٠]. وفي ذات السياق، أعاد القرآن تأطير نساء النبي حتى يستقمن على الطريق عبر آلية التوبة. وقبل أن نذكر السمات العبادية لنموذج الزوجة الصالحة، يجب أن نتأمل في هذا المقطع، حيث أشار إلى لفتة قوية، أن صيغة الخطاب فيها تنصيص على ثبوت تلك الصفات لأمهات المؤمنين، حيث قال: "وهذه الصفات انتصبت على أنها نعوت لـ: أَزْواجاً، وَلَمْ يُعْطَفْ بعضها على بعض الواو، لِأَجْلِ التَّنْصيصِ عَلَى ثُبُوتِ جَمِيعِ تِلْكَ الصفات لِكُلِّ وَاحِدة منهن، وَلو عطفت بالواو لاحتمل أَنْ تكونَ الْوَاوُ

---

٢٦ - سورة التحريم، الآية:٠٤

٢٧- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٣٥٦.

٢٨- ابن قيّم الجوزية، **مدارج السالكين**، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٦م) ط٣، ج٢، ص٣٦٥.

٢٩ - سورة الحجرات، الآية: ٠٢

٣٠- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله الشيرازي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ) ط١، ج٥، ص١٣٣.

لِلتَّقسيم، أَيْ تقسيم الأزواج إلى من يثبت لَهُنَّ بعض تلك الصفات دون بعض، ألا ترى أنه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين، دُونَ أُخْرَى مِنَ النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو قوله: ثيبات وَأَبْكاراً، لِأَنَّ الثيبات لا يوصفن بأبكار"(٣١).

من الجدير بالملاحظة، أنَّ حفظ السر "من فروع خلق الصبر، وهو ضبط النَّفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها، وله صلة بقوة الإرادة المسندة إلى صحة العقل، وسلامة الرأي، ويكون الكتمان فضيلة نافعة، إذا كان في أمر ينبغي كتمانه، وعدم إفشائه؛ لأن المصلحة المعقولة والمشروعة كتمانه"(٣٢). وبالرغم من أنَّ حياة النبي في بيته تبدو "رائعة في بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلًا ذا قلب وعاطفة ووجدان. ولم يحاول إلَّا في حالات الضرورة القصوى أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير"(٣٣). ومع كل هذا الهدوء والطمأنينة التي تكتنف البيت النبوي، وتدفقات أنوار الهداية التي تفيض بالنور الأسنى، تعيش فيه نساء كريمات بين جواذب الأنوثة ودوافعها العميقة، وبين معطيات الغيب، التي تظلل البيت النبوي، وتحفز على مزيد من التلقي والاستمداد والارتقاء. وفي ضوء هذا السمو الذي يحيا فيه آل البيت، يشهد مع ذلك هذا البيت، هزات عنيفة، فقد كانت "المغاضبة والمنافسة والغيرة؛ التي تحتدم حتى تجاوز المدى، وما يكون من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبيًا فحسب"(٣٤). وظل هذا البيت إمكانية مفتوحة للعطاء، ومدرسة متعددة الأبعاد، تتعهده التوجيهات الربانية، وتحسم في بعض المواقف. وقد كانت الغيرة حاضرة بقوة في محاولة للاستئثار به عليه السلام، بل تعتبر الدافع الأقوى في صناعة بعض المواقف غير السديدة. وكان الأجدر أن توجه، هذه الدوافع لتكون طاقة إيجابية في التنافس على الخيرات، وتقوية عناصر الشدّ للقيم الإيمانية والأخلاقية. ولكن الإفراط في كل شيء مذموم،كما يبدو ممّا ورد

٣١- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٣٦١، ٣٦٢.

٣٢- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **الأخلاق الإسلامية وأسسها** (دمشق: دار القلم، ١٩٩٩م) ط٥، ص٣٥٨.

٣٣- عائشة عبد الرحمن، **نساء النبي** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م) ص٢٢.

٣٤- المرجع نفسه، ص٢٢.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "قَامَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَأْتِي بَعْضَ نِسَائِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، فَأَتَى الْمَقَابِرَ، ثُمَّ قَالَ: "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّا بِكُمْ لَلَاحِقُونَ، اللهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ، قَالَتْ: ثُمَّ الْتَفَتَ فَرَآنِي، فَقَالَ: "وَيْحَهَا لَوْ اسْتَطَاعَتْ مَا فَعَلَتْ"[٣٥]. يبدو من هذا الكلام، أنَّ رسول الله كان متفهمًا لدوافع الغيرة، ولكن في مثل هذا الموقف، تجاوزت الحدود الشرعية المؤطرة، وأصبحت التصرفات، تعكس مستوى هذا الخلط في التعامل معه عليه السلام بوصفه زوجًا ونبيًا.

وإذا كان الزواج هو "إقامة دين على السكينة النفسية، والآداب الاجتماعية في إطارمحكم من الإيمان بالله، والعيش وفق هداياته، والعمل على إعلاء كلمته، وإبلاغ رسالته"[٣٦]، فإن تكوين الأسرة دين، والحفاظ عليها إيمان، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد، ورعاية ثمراتها من بنين وبنات جزء لا يتجزأ من شعائر الله"[٣٧]. ومن هذا المنطلق، يتوجب علينا أن نحلل هذا الموقف وما ترتب عن إفشاء السر من تبعات ومواقف نبوية، ممّا جعل يالقرآن يعيد تصويب هذا الحراك الواقع في بيت النبوة، وكل بيت معرض لمثل هذه الهزات التي تؤثر سلبًا على الكيان الأسري، ومن الطبيعي أن يكون إحساس "حفصة بالندم أوفر من إحساس أمهات المؤمنين الأخريات، وشعورها بالخطأ أفدح من شعورهن، فما كان لها وهي التقيَّة العابدة، أن تذيع سرًا ائتمنها عليه الرسول، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان، ولا كان لها أن تلقى ترضيته لها، وإكرامه إيّاها بمثل ذاك الجحود والنكران"[٣٨]. يهدف القرآن إلى بناء النفس بما ينسجم مع معطيات الهدى، ومن هذا البناء تتولد حيوية المجتمع، ذلك أن "البناء الاجتماعي لا يتم إلّا على أساس البناء الصحيح للأفراد، الذين يمثلون اللبنات الأولى لهذا البناء، وإنَّ أي تغيير يجب أن ينطلق من الداخل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

٣٥- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، باب: مسند الصديقة عائشة بنت الصديق، رقم الحديث: ٢٤٤٧ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ج٤١، ص٢٥.

٣٦- محمد الغزالي، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة** (دار الشروق، ٢٠٠٢م) ط٧، ص١٠٧.

٣٧- المرجع نفسه، ص١١٠.

٣٨- عائشة عبد الرحمن، **نساء النبي**، ص١٢٦.

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٣٩][٤٠]. والناظر في القرآن يلاحظ، أن النظام الأسري تحكمه ضوابط التشريع، ولهذا وضع القرآن نساء النبي في بؤرة المطلوب، وخيَّرهن بين الآخرة والدنيا الزائلة، فإن اخترن الدنيا، فإن التسريح هو الحل، وإن اخترن وجهة الله، فإن لهذه الوجهة تكاليف وأعباء. وبالرغم من أنَّ مطالب أمهات المؤمنين تبدو مشروعة، ولكن هذه المطالب لا تليق بالمقام الأسنى الذي يريده الله لهن. فقد اختارهن النموذج المثال الذي تجتمع فيه مقومات الإيمان والصلاح، فهن مركز الخطاب وحقيقته، فلا يمكن أن يتصرفن على المساحات المتاحة لباقي النساء . فقد تكون حسنات الأخريات سيئات بالنسبة إليهن. وبناءً عليه، فإنَّ من كانت "في بؤرة هذا الأمر وضمن حرمه عليه السلام، ممن يعرفن أسرار الكثير من الأمور، يجب أن يضحين بكيانهن في هذا السبيل"[٤١].

ولهذا الاعتبار، يمثل البيت النبوي مركز الحقيقة، المنبثقة من إشعاع النور الخالد. ويحمل عناصر التفرد، وهموم أمة، ويشرف على أهداف الرسالة، وموطن للعبادة والذكر؛ بل هو مركز إشعاع حضاري للأمة، لا تحاصره الأهداف الضئيلة، ولا يحيا على مستوى المادية، وجواذب الزينة، وإنّما يحيا على مستوى الروح. فمن ينتمي لهذا البيت، فعليه أن يتحصن من الدنيا ورغباتها، ويسمو بذاته إلى مطالب الآخرة؛ بل يبحث في ذاته عن هذا الأفق العظيم، ويهيئها للمراتب العلوية. وليس من السهل بلوغ ذلك إلّا بالمجاهدة والتضحية بالمتطلبات الذاتية، والانصهار في بوتقة الرسالة، لأن هذا البيت هو الذي تتمخض عنه ولادة مجتمع الأمة. لقد نجح بيت النبوة في هذا الاختبار على مستوى الإرادة النظرية، وإن سجل بعض الإخفاقات على مستوى الأداء العملي، فقد حدّد هذا البيت النبوي المنطلق والهدف، باختيار زوجات النبي الله ورسوله ومتطلبات الخلود. ومن ثم،

٣٩- سورة الرعد، الآية: ١١.

٤٠- بوداود حسين، **النفس البشرية عند ابن قيّم الجوزية** (دمشق: دار وحي القلم، ١٤٣١هـ) ط١، ص١٦٤.

٤١- محمد فتح الله كولن، **النور الخالد**، ترجمة: أورخان محمد علي (القاهرة: دار النيل، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م) ط٥، ص٢٩٤.

تأصيل هذا الهدف في حياة الأمة، يقول مالك بن نبي: "الفكرة الأصلية تحتفظ بأصالتها أبد الدهر، وهي ذات طابع قدسي"[٤٢]. وتتجذر هذه الأصالة في كيانهن، لتصبح نابعة من واقع الذات المستقيمة. وإنَّما سجل السير بالفكرة إلى الفعل، بعض الإرباك الذي يتطلب مزيدًا من الفعالية والقوة لمواجهة بقايا التأثير الدنيوي، وتوجيه الدوافع العاطفية، وإعادة تسديدها نحو الخط المستقيم. إنَّ الحراك الداخلي، يحتاج إلى قوة داعمة لإعادة ضبط البوصلة النفسية، والدوافع القابعة خلف هذه السلوكيات. وتفعيل هذا المبدأ في الحياة الأسرية، يستدعي تدافعًا في نفوس زوجات النبي، حتى يرتقين إلى هذا المستوى. إذ لابد من المجاهدة للتغلب على العقبات النفسية، وتنمية الوعي بأبعاد هذه الوظيفة العبادية. ومن هنا، تنفتح العلاقات الزوجية على آفاق التجربة النبوية بامتداداتها الواسعة، وتنصهر الوجدانية الزوجية مع حقائق المنهج، وتستقيم على مواقع الهدى.

وفي ذات السياق، فإن ضبط الواقع الأسري، يستدعي مزيدًا من التمحيص للنوازع الذاتية، وكبح جماح الغيرة الزائدة، من خلال ترقية المشاعر وتفجير كوامن الطاقة الإيمانية، وآفاقها الممتدة في الروح والقلب. والنظر إلى العلاقة الزوجية، على أنها تجربة ثرية بعناصر الخير، والخروج من واقع الأنوثة ودوافعها الضيقة، والانصهار في بوتقة الإيمان. إن الإسلام في نظرته العميقة لا يصادر الدوافع الفطرية المتأصلة في النفس، وإنّما تحتويها الحدود العملية، ويؤطرها المنهج القويم. والنبي عليه السلام محكوم في حياته بضوابط النبوة ولوازمها. كما يهدف القرآن من وراء هذه التوجيهات إلى تحرير نساء النبي من الدوائر الضيقة، حتى يتسنى لهن إعادة صياغة المكون العاطفي، بما ينسجم مع متطلبات المنهج. وبهذا ينتقين كنماذج زوجية، تصلح أن تتخذ مثالًا أعلى في الحياة، وتتناسل من ميراثها الكثرة المستقيمة على قيم الله. يمكننا أن نفحص ذلك على مستوى واقع الحركة، ومدى تكيف بيت النبوة مع متطلبات الإيمان، والتضحيات المبذولة لبلوغ مرتبة التميز. فقد رفض القرآن أن يكن في مستوى بقية النساء، وخصهن بأمومة المؤمنين. وكشف الواقع عن مجاهدات

٤٢- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العلم الإسلامي** (الجزائر: دار الوعي، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م) ط١، ص١٠٢.

أمهاتنا، وتمثلهن الصبر كقوة عملية ضابطة. وإن كان للواقع معطياته، إلّا أن رسوخ المبدأ تحقق بفعل المردود المبذول، وهذا تعبير عن المخزون القيمي في كيان هؤلاء الطاهرات. ونحن في طرحنا لواقع الأسرة النبوية، لا نحاكم النيات أو الدوافع المتحكمة في بعض المواقف الصادرة عنهن، وقد خضعن إلى تربية نبوية محكمة. وإنَّما أعاد القرآن تأطير الفعل الزوجي، بما تسمح به حدود التقوى. ومن هنا، فإن هذا البديل المستقيم، هو انعكاس لصورة المرأة المؤمنة، والزوجة المثالية التي ينشدها القرآن، وجاء الخطاب لنساء النبي، لأنهن النموذج الذي انتخبه القرآن لهذه المهمة تأصيلًا وتقعيدًا، ويتوخى من خلاله أن تقوم الأسر المؤمنة على هذه الأهداف، وتتأطر بمسلك الاستقامة، الذي تجسده هذه السمات العبادية الناظمة للحياة الزوجية.

من المهم أن ندرك في ضوء هذا التصور، أننا نجد اهتمامًا بالغ الأهمية بفكرة الأسرة النموذج، التي ينبغي أن تتمثل مواصفات الخيرية، بعدما أعاد القرآن تأطير الأسرة النبوية، وقدمها بديلًا أخلاقيًا لجميع الأسر المسلمة، مستلهمًا التصور السليم للحياة الزوجية في ضوء النسق التوحيدي. وإذا كان الله قد صاغ الأسرة وفق مقررات المنهج، فإن التركيز على هذه السمات، الهدف منه الارتقاء بكيان الزوجية إلى المستوى العبادي، واستخراج الطاقة الأخلاقية الممكنة لنيل كرامة الإيمان والتقوى، وما في هذه من مسؤولية وتأهيلٍ عالٍ، يمنحهن شرف الانتساب له عليه السلام. ومن ثم، فإنَّ الأسرة بما تحمله من قيم جوهرية هي النواة الرئيسية، التي يقوم عليها بناء المجتمع. فلا بد أن تكون سليمة الفكر، متينة البنيان، قوية المبدأ، راسخة الوجهة، طاهرة المنبت، شريفة الخلق. وهذا يستلزم أن تكون لِبناتها راسخة في الصلاح حتى تثمر ذرية النفع المثمر. لقد كان "البيت المسلم في تاريخه الأول، ينشئ على الأخلاق الزاكية، والعبادات الوضيئة، ويرعى أصول الفضائل حتى تزهر، كما ترعى الأرض الطيّبة البذور الجيّدة حتى تصير حبوبًا وفواكه"[٤٣]. وإذا كانت الغاية من وجود الإنسان هي أن "يعبد الله ويطور مشاعره وفق ما أمر به الله، عبر اختياراته

٤٣- محمد الغزالي، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، ص١٨٨.

واستغلاله للطبيعة، يقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٤٤)، ويجب عليه أيضًا، أن يهيّء الوسائل الملائمة التي تدعم سعيه إلى الصراط المستقيم"(٤٥).

المطلب الثاني: مواصفات الخيرية في النموذج المثال في ضوء سورة التحريم

يطرح القرآن مواصفات البديل الأخلاقي الذي تتمثله الأسرة النموذج، انطلاقًا من المدخل المفتاحي الإسلام، ويتعاضد مع الإيمان، وما ينشأ عنهما من القنوت والطاعة، ومقتضيات العبودية، جاء ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾(٤٦).

١: الإسلام

إنَّ الإسلام يقتضي الخضوع والانقياد لأوامر الله، وما لهذا التسليم والخضوع من تأثير في ضبط مسار الحياة الزوجية، وتحقيق التوازن في جميع الروافد التي تشكل بنية الأسرة. وتسير وفق نمط السلوك الذي يفرضه القرآن؛ بل هو الداعم الأقوى الذي يجعل الحياة الأسرية مستقرة، وتحقق السكن النفسي والمودة القلبية، والرحمة التي تلم شمل العائلة. وإذا كان الإسلام هو الإطار العام الذي تتحقق فيه جميع السمات العبادية للنموذج الصالح، وهو المدخل المنهجي للبناء الأسري، أو الوعاء الذي تتشكل عبر تعاليمه الأسرة، وتتأطر في ضوئه العلاقات الزوجية. وجلي أنه لا يمكن، أن تكون المرأة مسلمة، وهي لا تخضع لله، لأن الإسلام من الوجهة العملية، يعني الانقياد للتكاليف والاستقامة على مقررات الشرع الحكيم. ومن هنا، فهو الإطار المنهجي الذي يحدّد هوية الزوجية، والمنطلق الرئيس في تكوين الأسرة، وعبر تشريعاته يرتسم الهدف. وفي ذات السياق، يعتبر المرجعية

---

٤٤ - سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

٤٥ - فضل الرحمن مالك، **المسائل الكبرى في القرآن الكريم** (بيروت: جداول للنشر والترجمة، ٢٠١٣م) ط١، ص٣٤.

٤٦ - سورة التحريم، الآية: ٥.

التي يقوم عليها البناء الأسري، فتنضبط جميع التصورات حول منظومة الزواج على خط الفكر والعمل، ويتحقق التوازن النفسي، والأخلاقي للأسرة، ويجعل سلوك الزوجة، يسير وفق النمط الذي يريده الله. وجوهر الخضوع، يتمثل في عنصر الطاعة، فسر الطبري كلمة مسلمات بمعنى "خاضعات لله بالطاعة، ومؤمنات تعني مصدقات بالله ورسوله، قانتات: مطيعات لله"(٤٧). جاء في **مفاتيح الغيب**: "مسلمات: خاضعات بالطاعة، ومؤمنات: تعني مصدقات بالتوحيد الله، مخلصات، وقانتات: طائعات"(٤٨)، ووسع البقاعي ذلك بقوله: "مسلمات: أي ملقيات بجميع قيادهن ظاهرًا وباطنًا لله ورسوله على وجه الخضوع، ولما كان المشاهد من الإسلام هو الظاهر، قال مؤمنات: أي راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن"(٤٩).

جاء في **الظلال**: "الإسلام دلالة على الطاعة، والقيام بأوامر الدين، والإيمان: الذي يعمر القلب، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل، والقنوت: وهو الطاعة القلبية"(٥٠). وأشار ابن عاشور: أن المقصود منها: "المتصفات بالإسلام، والمؤمنات: المصدقات في نفوسهن، والقانتات: أي القائمات بالطاعة أحسن قيام، وفي هذا الوصف إشعار بأنهن مطيعات لله ورسوله، وفيه تعريض لما وقع من تقصير إحداهن في ذلك، فعاتبها الله وأيقظها للتوبة"(٥١). وفي ذات السياق، فإنّ هذه الأوصاف: "سمات قائمة فعلًا في أزواج النبي، وأن كل واحدة منهن، تتميز بصفة ظاهرة من هذه الصفات، وهي الغالبة على أحوالها، فمنهن من غلبت عليها صفة الإسلام، الذي هو سمة للسلام،

٤٧- محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي (دار هجر للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م) ط١، ج٢٣، ص٤٨٩.

٤٨- أبوعبد الله محمد بن عمر الرازي، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ) ط٣، ج٣٠، ص٥.

٤٩- إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي) ج٢٠، ص١٩٤.

٥٠- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٦١٧.

٥١- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٣٤.

والموادعة واللطف، ومنهن من غلبت عليها صفة الإيمان، ومنهن من غلبت عليها صفة القنوت وهكذا، هذا يعنى أن زوجات النبي قد تخيرهن الله من أهل الإيمان والكمال... أما الاستبدال بخير منهن، فإن هذا إنما يكون فى حال هنّ فيها خارج بيت النبوة، وذلك إذا لم يتبن إلى الله، ولم يصلحن ما أفسدن من علاقة بينهن وبين النبىّ، بعد هذا الغبار الذي أثاره هذا الحديث الذي ذاع بينهن.. أما وهنّ فى بيت النبوة لم يخرجن من هذا الحمى الطهور، فإنهن خير نساء خارج بيت النبوة"[٥٢]. بالنظر في آراء المفسرين، فإنها تكاد تتفق على أن مسلمات، لا تخرج عن كونها الخضوع لله بالطاعة، والانقياد لله بالظاهر والباطن، والقيام بأوامر الدين، والسلام والموادعة والملاطفة. ومن ثم، فإن القرآن يهدف في ضوء هذه المواصفات، للتأكيد على التراتبية في إبراز السمات الرئيسية للنموذج المستقيم. فإذا كان الله هو مصدر هذه القيم، بوصفه القيّوم، فإن الله بَيّنَ المسلك القويم الذي ينبغي أن يتبع. وأشار في هذه السلسلة المنتظمة إلى حزمة من القيم المؤطرة للأسرة المسلمة، انطلاقًا من الإسلام بوصفه الدين الذي يضبط توازن الأسرة على النسق التوحيدي. وهو القيمة المركزية، وما يتفرع عنها من قيم العبودية والتقوى. ومن الوجهة العملية، فإن الله يريد ضبط مسار الأسرة في ضوء هذه الأبعاد "الله، الرسول، الدّار الآخرة"، ومعلوم أنه لا خير في قيمة لا يشفعها عمل، لأن الإسلام ليس شعارًا يرفع، وإنّما هو خضوع لله في الأمر والنهي، حتى يخرج الإرادة الزوجية من التنظير إلى العمل. وهذا الخضوع وحده يرسخ هذه القيم في واقع الأسرة النبوية.

من الجدير بالملاحظة، ضرورة التنبيه على استخدام القرآن لهذه السمة، قبل الإيمان، يقول ابن تيمية: "الدين ثلاث درجات، أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنًا، ولا كل مسلم مؤمنًا"[٥٣]. والإسلام "هو

٥٢- انظر: يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج١٤، ص١٠٢٩.

٥٣- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **الإيمان** (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٦م) ط٥، ص٨.

الانقياد والاستسلام، وكل طاعة انقاد العبد بها لربه تعالى واستسلم فيها لأمره، فهي إسلام"(٥٤). وانطلاقًا ممّا قلناه، فإنَّ الإسلام هو الإطار الذي يحتوي جوهر الزواج وخصوصياته. وإذا كان يقتضي التسليم والانقياد لله، فإنه من أهم الركائز التي تجعل الحياة الزوجية متناغمة مع خطوط المنهج، لأن الزوجة إذا خضعت لأمر الله، وأدركت ما لها وما عليها، فإنها سوف تبذل جهدًا لإرضاء الله، وتشعر أن في هذه الطاعات استثمار للصالحات، والتحقق برضوان الله. وتتوافق إرادتها مع خيارات الحق ومبادئه المنظمة للزوجية. نفس الشيء بالنسبة للزوج. فكلا هما مؤطر بمنظومة قيمة، تضبط مسار هذه العلاقة، وتوجهها على مستوى الدنيا ومنجزاتها، والآخرة وثمارها، وما لهذا التناغم من قدرة على تحقيق الدفء العائلي، والاستقرار النفسي، وروح التآلف، والمحبة في نطاق هذه الزوجية. ويكتمل مشروع الأسرة، عندما تكون إرادة الزوجين تسير في الاتجاه الصحيح، وقد جاء الإسلام بالكثير من التشريعات التي تنظم الشأن الأسري، إن الحق لا يكتمل إلّا بالجمع بين الظاهر والباطن، حتى يستقيم مسار الأسرة، وتؤدي وظيفتها في تربية الجيل على قيم الإيمان والخير، وتتعهد الزرع بجميع المحميات، التي تحافظ على هوية الأمة، وتحارب جميع التشوهات التي قد تضرب النسيج الأسري، وترقية المنظومة الأسرية من خلال تربية النموذج المثال؛ الذي يدعم أسسها الروحية والأخلاقية، ويحافظ على خصوصيتها الحضارية. مما يقتضي السير بها إلى مستوى عظيم من النضج المعرفي، وترقية عناصر الزوجية لبلوغ الكمال. وبناءً عليه، فإنَّ الظفر بالزوجة الصالحة، هو المؤشر السليم على صلاح الحياة الزوجية، لأنها بهذه الصفة مهيأة للزرع الطيب. ومن الوجهة الفكرية، تستمد الأسرة أصالتها ومقوماتها من الإسلام، وهو الضمانة الكبرى للحصانة الأخلاقية والسلوكية. وقد أناط الله هذه الأسرة، بمهمة تكوين مجتمع أمة، ولا يمكن أن تتخلف عن هذا التأهيل العالي لبلوغ القمم العالية. لأن تخلف الكمالات "تكون إمَّا عن عدم البصيرة، وإمَّا من عدم العزيمة، وحسن القصد لقاح الذهن، فإذا فُقِدَ فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمر أنواع

٥٤- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، **التمهيد**، ت: ريتشارد مكارثي (بيروت: المكتبة الشرقية، ١٩٥٧م) ص٣٤٧.

الخيرات"[٥٥].

٢: **الإيمان**: من الضروري القول بأنَّ الإسلام خضوع ظاهري، تنضبط به الاستقامة السلوكية، والإيمان انقياد بالباطن، وتتحقق في ضوئه الاستقامة القلبية، وحتى تستوي الصورة الإنسانية ويكتمل بناؤها، دعا الله إلى تقويم الذات في قوله:﴿ فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾[٥٦]. فمن أراد علو بنيانه، فعليه بتوثيق الإيمان وإحكام مداخله، ذلك أنَّ "علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، والأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلى عليه"[٥٧]. ويتحقق ذلك بصحة المعرفة بالله وأمره، وأسمائه وصفاته، وتجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه"[٥٨]. وفق هذا المنطلق، يكون الإيمان هو القيمة المركزية في تكوين الشخصية المسلمة، وهو الذي يعطي قيمةً للظاهر، وليس الظاهر سوى حامل للمعاني المبطونة في كيان ابن آدم. ونظرًا لهذا التمازج، وما بينهما من علاقة صميمة، فإنَّ مستقبل الإنسان في وجوده، يتوقف على خضوع الظاهر للباطن. وبفضل مجاهدة النفس تصعد أشواق الإيمان، وتترقى نحو الكمالات الأخلاقية. هذا يؤكد أن الإنسان يستكشف قدراته الإيمانية عبر الجمع بين الأضداد، مما يرشحه إلى الانتصار على معطيات المادة، والانصهار في بوتقة المعنى، وبهذا تكتمل جوانب المعرفة بحقيقته. فإذا كان غذاء المعرفة، يجمع بين الفكر والعمل، والظاهر والباطن، فإنَّ الإنسان معني بخضوع الإرادة الخارجية، والانقياد بالإرادة الباطنية لله. ولا يستقيم ذلك إلّا بتلازم هذين المكونين. ولهذا يهدف القرآن إلى تربية زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تربيةً إيمانيةً، استعدادًا لبلوغ رتبة الإحسان، وعملًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي

٥٥- ابن قيّم الجوزية، **الفوائد** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م) ص٢٠٠.

٥٦ - سورة الشمس، الآية: ٨/ ٩

٥٧- المرجع نفسه، ص١٥٦.

٥٨- المرجع نفسه، ص١٥٦.

كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٥٩).

إنَّ الإيمان بالله طاقة نورانية، تنساب في الوجدان، وتعكس مدى صفاء الجوهر، الذي يشع باليقين، ويبعث على الطاعة، وبالتكامل بين الخضوع والتصديق، يتحقق التكامل الأسري، يقول سيد قطب: "والإسلام: الاستسلام، والإيمان: التصديق، وبينهما صلة وثيقة، أو أن أحدهما هو الوجه الثاني للآخر. فالاستسلام إنَّما هو مقتضى التصديق، والتصديق الحق ينشأ عن الاستسلام"(٦٠). إنَّ الإيمان المقصود هنا، هو الذي يوجه الطاقة الحيوية لنساء النبي بأهمية الأسرة النموذج، ومدى ارتباطها بجهاز القيم، وتدرج الاجتماع الأسري في هذه الرتب لبلوغ قمة الإحسان. ومن ثم، يثمر الخير والصلاح، ويشيع السلام في الحياة الزوجية، المتقدة بجواذب الجمال، ومحاسن الأخلاق. ويرقي المطالب الزوجية، ويرفعها من مستوى الإمتاع الدنيوي إلى فضاءات النور وفيض النبوة الطاهرة. وبعدما ما خضعت أمهاتنا لاختبار الإرادة، فإنَّ القرآن يضع هذه الإرادة على محك العمل، قصد ترقية الكمالات الأخلاقية للأسرة النبوية، وتعزيز تماسكها. ولهذا شكلت هذه الأسرة، بؤرة الاهتمام في القرآن، ورصد الكثير من التوجيهات لضبط الأسرة المثال. ومن المعلوم، أنَّ الإيمان يقوم على خاصية التقوى، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٦١). وهو الدافع الأقوى على العمل الصالح، ومنه تتولد إرادة الطاعة لله ورسوله. ذلك أن الإسلام هو تسليم الإرادة والوجود لله، والإيمان ليس سوى طاقة على العمل والإنجاز، وكل من الإسلام والإيمان، يمثلان بشكل تبادلي طريق الهداية والاستقامة، والتلازم بينهما يؤكد أنَّ الاجتماع الأسري لا يتم إلّا في ضوئهما.

وفي خطوة تغدو مهمةً، أنَّ التقوى في هذا السياق، تعني أن حركة الأسرة ينبغي أن تكون

٥٩- سورة فصلت، الآية: ٣٠.

٦٠- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص٢٨٦٣.

٦١ - سورةالمائدة، الآية: ٥٧.

مؤطرة ضمن حدود الله، والتقوى هي الفعل الأخلاقي الذي يحفظ الكيان الأسري من السقوط في الذنوب، ويجعل سلوك نساء النبي في غاية الجودة والإمتاع من الزاوية الأخلاقية. وهو ما نصطلح عليه بالعبادة الشاملة لجميع الأداءات الوظيفية في الحياة. وكلها قيم ترسخ قيمة التوحيد في الاجتماع الأسري. ولهذا يسعى الخطاب إلى تأصيل هذه المعادلة الجامعة في بيت النبوة، إذ هي قيم متلازمة شديدة التماسك. ولا يمكن أن تنضبط الأسرة، إلّا إذا تأسست على المنطلقات العقدية التي تحقق التوازن في التعامل مع الله والمحيط الأسري. وبهذا المعنى، يكون القرآن، قد دعا نساء النبي إلى تحقيق التكامل بين الظاهر والباطن، وتأصيل البعد التعبدي في الأسرة النبوية، حتى تحيا على هذا النسق العالي. وإذا كانت التقوى تمثل العنصر الجوهري في الإيمان، فإن هذا المقطع يجلي مظاهر التقوى الخارجية المتمثلة في القنوت، التوبة، العبادة والسياحة. فإذا تحققت الزوجة بهذا المبدأ، فهذا يعني أن هذه الطاقة المحركة سوف تقود للأعمال الصالحة، وتسد الطريق أمام الخطأ. ولعل من أهم ما يثمره الإيمان في حياة الزوجين الرضا بأقضية الله، والسير على مواقع أقداره، فإذا وجد الإيمان العمل عند الزوجين أورثهم الرضا. ولهذا نبه القرآن، أن يأخذ الزوج هذه الصفة بعين الاعتبار في اختيار الزوجة، لأن الإيمان حاجز عن كل معصية، ومحفز لعمل الطاعات. إنَّ الناظر في المجتمع اليوم، يلاحظ انسحاب هذا المفهوم من الواقع العملي، وقصْرَ مفهومه على بعض الشعائر التعبدية. وهذا انعكس سلباً على مردود الأسرة، وأدائها الوظيفي في توجيه الأبناء وتربيتهم، وتهدمت أواصر الدم والرحم، وفقدت روابط المودة والقرابة معناها الحقيقي، وغياب روح المشاركة بين أفراد الأسرة الواحدة.

خلاصة القول، أن الفكرة النبوية تسعى إلى بناء الأمة المؤمنة في ضوء التركيز على مستخرجات الأسرة، وضرورة قيامها على مبدأ الإيمان، بهدف تحديد الهوية الإيمانية للأسرة المسلمة، سعيًا إلى إيجاد أمة العبادة. إنَّ الفكرة القرآنية عميقة المعنى، ومتشابكة في أبنيتها، فلا مفاصلة بين المعنى والمادة، وتسعى إلى تنمية البعد التوازني بين متطلبات الأسرة النموذج، حتى تكون واقعية في

أهدافها، ومحلًا للتأسي على طريق الحياة. وبهذا تصبح خصائص الأسرة النبوية، هي اللباس المعنوي للأسر المسلمة، وتبني الحقيقة في مذهب الحياة. وكأن القرآن في ضوء السمات التكوينية للأسرة النبوية يهدف إلى وضع أرضية صالحة للبناء الأسري. ولم يكتف بنفي الزينة الدنيوية عن زوجات النبي، وإنما قطع جميع آمالهن إزاء هذا الإمتاع، وقصر الإرادة على الله ورسوله والدار الآخرة. وما يكابده النبي من مجاهدات في طريق الدعوة، ينبغي أن يتقاسمن معه الهدف، ويحيين في مستوى طموحه الرسالي، ومستخرجات روحه ورفعة أخلاقه، إن تكاليف القدوة تحملهن على أن يعشن على خط فقراء الأمة، فهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة المجاهدة، لأن الآخرة هي زينة المرأة الكاملة، ولا تكتمل آخرتها إلّا بكمال دنياها.

٣: **القنوت**: يطلق القنوت، ويراد به معانٍ: الإمساك عن الكلام أو السكوت، والدعاء والخشوع والإقرار بالعبودية، والطاعة، والقيام وإطالة القيام، ويقال للمصلي قانت، والقانت: المطيع الذاكر لله، وقيل: القانت العابد، وحقيقة القائم: أنه القائم بأمر الله"[٦٢]، ومنه نقول: قنتت المرأة لبعلها: أقرَّت أي سكنت وانقادت"[٦٣]. يقول الطبري: "قانتات: أي مطيعات لله،[٦٤]وقد جاءت هذه الكلمة في هذا السياق، شاملةً لكل هذه المعاني، لا بد أن تكون الزوجة ذات لسان جميل، ينطق بعذب الكلمة وجمالها، ممسكة عن الفحش اللفظي والثرثرة التي تبدد الهدف، وتضيع مردود الوقت في لغو الكلام. وتستثمر طاقة الكلمة في محاب الله والابتعاد عن الغيبة والنميمة وغيرها. تخضع لله خضوعًا واعيًا، وخشوعًا متقدًا بحب الله، مقرّة له بالعبودية، منقادة له بالطاعة، قائمة على صلاتها وتحافظ على خصوصيتها الدينية، وتمثلها لقيم ربها، ومن هذه الطاعة المتبصرة، تتفرع عنها طاعة الزوج، فتؤدي وظائف الزوجية في يسر ومحبة، وتغمرها السعادة في كنف أسرتها. وجعل الله

٦٢- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٣م) ج٧، ص٥٠٧، ٥٠٨.

٦٣- المرجع نفسه، ج٧، ص٥٠٤.

٦٤- ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٣، ص٤٨٩.

وسام هذه الزوجة المطيعة اللينة، والمرنة في تربيتها نموذجًا للصلاح. جاء في **المفردات**: "القنوت: هو لزوم الطاعة مع الخضوع"(٦٥). وفي ذات السياق، يعتبر القنوت من المفاهيم الكونية، فقد وصف الله الكون بالقنوت، فكل الوجود قانت لله، يجلي الله ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وكُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(٦٦)، والقنوت هنا، مقرون بالعبادة ومعناه: الخشوع والخضوع.

وصف الله الأنبياء بهذه الصفة دلالةً على علو مرتبتهم، ورسوخ طاعتهم، فقد مدح الله الخليل بهذه الصفة في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٦٧). وجاء في سورة الزمر قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٦٨). ووصف به مريم في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾(٦٩). والقنوت هنا: طول الركوع في الصلاة، وتوجه بالخطاب لأمهات المؤمنين في قوله: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾(٧٠)، أي تطيع الله ورسوله وتستجيب لهما؛ بل جعله الله من الصفات الملازمة للمسلمين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾(٧١)، أي المطيعين والمطيعات. وبهذا يكون القنوت: هو المداومة على الأعمال الصالحة والطاعة الدائمة لله والخضوع القلبي المتجدد لله. ومن هنا، فإن القرآن

٦٥- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج١، ص٦٨٤.

٦٦- سورة البقرة، الآية: ١١٦.

٦٧- سورة النحل، الآية: ١٢٠.

٦٨- سورة الزمر، الآية: ٠٩.

٦٩- سورة مريم، الآية: ٦٣.

٧٠- سورة الأحزاب، الآية:٣١.

٧١- سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

جعل القنوت من الصفات التي ينبغي أن تكون راسخة في نساء النبي، وقد ورد بصيغة الفعل الدالة على التجدد والاستمرار في طاعة الله ورسوله، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٧٢). جاء الخطاب هنا للتأكيد أن هذه الصفة، هي من مستلزمات الكمال، وعلو المرتبة التي يريدها الله للنماذج المثالية. جاء في **نظم الدرر**: "قانتات: أي مخلصات في ذلك لا شائبة في شيء منه، فهن في غاية ما يكون من إدامة الطاعة له من الذل والانكسار، والمبادرة إلى امتثال أمره في المنشط والمكره"(٧٣). وركز سيد قطب على محل القنوت بقوله: "الطاعة القلبية"(٧٤). وعليه، فإذا كان جوهر النبوة هو هذه الصلة المبهمة بالله، وبغيبه أي "هذه الحالة البرزخية بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، هذه الحالة التي تجعل من النبي مستمعًا من نوع فريد، يتلقى الإلهام من آفاق أعلى لا يرقى إليها غيره، ولهذا يحتاج النبي إلى إعداد روحي يختلف تمامًا"(٧٥). فإنَّ سيد الخلق قد بلغ في كل كمال ذروته، ولا بد أن يصحب هذا التأهيل من تشاركه الحياة الزوجية، وتتكامل مع هذه الشخصية المعصومة.

ومن هنا، فإننا نجد الله حريصًا على إعداد النماذج الاقتدائية، التي تتجلى فيها مواصفات الخيرية، ويسعى إلى ترقية نساء النبي على المستوى الروحي والوجداني، حتى يستقمن على الصراط القويم، ويتحركن بفعالية إيجابية في خدمة الرسالة، وتبلغ كل واحدة منهن ذروة الكمال في كل سمة من هذه السمات العبادية المؤطرة للأسرة النبوية، بل لا يكفي أن يتصفن بواحدة منها فقط، وإنما بلوغ هذا المقام لا ينال إلّا بهذا التكامل، وما يستتبع بذلك من ممارسات سلوكية، تجسد مفهوم الخيرية في واقع الأسرة النبوية. إنَّ الاتصال بالنماذج المثالية، يتم عبر هذا الطريق الذي اختاره الله تعالى لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم، بعدما انتقين وجهة الله ورسوله، ذلك أنَّ بلوغ السمو

---

٧٢ - سورة الأحزاب، الآية:٣١.

٧٣- إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٢٠، ص١٩٥.

٧٤- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٢٨٦٣.

٧٥- مصطفى محمود، **محمد** (القاهرة: دار المعارف) ط١٠، ص٠٩.

الأخلاقي، يتم بإعادة تأطير السلوك العبادي لهذه النماذج الاقتدائية، ومن ثم، تأدية الوظيفة الرسالية لبلوغ مقام الخيرية. وهذه السلوكيات تتدرج بهن في السلم العبادي، حتى بلوغ مستوى القدوة، "الإسلام، الإيمان، القنوت، التوبة، العبادة، السياحة"، وقد صاغ القرآن الشخصية الأسرية في ضوء هذه الصفات المعروضة لنساء النبي، والتي ترشحهن لمستوى الزوجية، وشرف الانتساب للنبي. فإذا كان الإسلام هو خضوع حركة الظاهر، وتسليم الوجه لله، فإن الإيمان هو انقياد حركة القلب لله، والقنوت هو مفهوم ناشئ عنهما، ويتولد منهما. وقد اتخذ القنوت بُعْدًا كونيًا. فإذا كان الكون خاضعاً لله، وداخلاً في دائرة هذا القنوت، وقد استقبل رسالة الله بالطاعة مصداقًا لقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٧٦)، فإنَّ الحياة يعرضها القرآن على نساء النبي، هي ارتقاء بالحس الإنساني إلى مستوى الحس الكوني. وبناء تفكير كوني، يضمن سلامة الوجهة والمقصد، حتى لا ينحرف عن الخط المستقيم. والتأمل الواعي في حركة الأسرة المتناغمة مع البيت الكوني الكبير، لتكون هذه الأسرة بمثابة الجذر الذي تتناسل منه الأسر الممتدة، باتجاه الكثرة النوعية العابدة لله.

ومن هذا المنطلق، إذا كان الكون قانتًا لله، لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾(٧٧). فإنَّه يغري بالصعود، لأنه طبعة طائعة، والله هو قوة الجذب عنده، وهو مستسلم لهذه الجاذبية الفطرية، باطنه عبادة وتسبيح، وظاهره منافع وجمال وتسخير. وقد تلقى الكون رسالة الله بالطاعة والإذعان، وتلقى الإنسان الرسالة على مستوى الاختيار الحر. وبين إغراءات الصعود والانحدار، يتقلب الإنسان في أحواله. ومن ثم، فإن القنوت الذي يدعو إليه الأسرة النبوية، يعادل قنوت الكون تمامًا، لأن إرادة الكون هي الطاعة والخضوع، وقد سلمت زوجات النبي إرادتهن لله ورسوله بإرادة حرة. وهي وجهة الكون المفطور على الطاعة. فيتوجب أن يكون قنوت أمهات

---

٧٦ - سورة فصلت، الآية:١١.

٧٧ - سورة الروم، الآية: ٢٦.

المؤمنين مماثلًا للقنوت الكوني، ومن هنا، نلاحظ أن الله يرقي الأسرة النبوية في دائرة الإمكان الكوني للتدرب على القنوت الدائم، الذي يتجدد في كل أمر يدعو إليه الله ظاهرًا وباطنًا. والقيام لله قيام طاعة بخشوع، والتلون في مختلف مظاهر العبودية، وصدق التوجه نحو الله، وعبر صراط الله المستقيم، تؤدي الأسرة النبوية مفردات الطاعة وتتحقق بمواصفات الخيرية.

٣: التوبة

إذا كان الارتقاء لمواصفات الخيرية، يتم في ضوء التدرج في مراتب الإسلام والإيمان، وما يتولد عنهما من القنوت لله، فإن التوبة تسد جميع الثغرات التي قد تحدث خللًا في الأداءات العبادية الناتجة عن التقصير والغفلة، والتي بدورها تضعف المردود العبادي للمسلم. هنا نلاحظ أنَّ تشريع التوبة يتناسب جذريًا مع جبر الأخطاء، وتصويب العطب. وبهذا توحي كلمة التوبة: "بترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذِر: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجل كذا، أو فعلتُ وأسأت وقد أقلعتُ، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقُبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يُتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُل شرائطُ التوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[٧٨]، والتواب: هو العبد الكثير التوبة[٧٩]. ومن ثم، تعتبر التوبة المدخل المفتاحي لتصحيح المسار، يفتح الله من خلالها فرصةً للإنسان، ليصلح من شأنه. ذلك أنَّ الطبيعة الإنسانية كما تغري بالصعود، فإنها تحكمها الأهواء، التي قد تزري بها في المعصية. وهذه الدوافع الذاتية، وإن كانت تؤدي دورًا في الحياة، ولكن القرآن أعاد تأطيرها، وجعل لكل دافع ضابطاً يؤطره حتى تستقيم حركة الإنسان، ويمتلك حصانة أخلاقيةً ضد جميع المسالك التي تهوي به في حمم المعصية وإغواءات الشيطان. هذا الأخير، يمثل قوة معاديةً للإنسان،

٧٨ - سورة التوبة، الآية: ١١٨.

٧٩- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج١، ص١٦٩.

وظيفته الإغواء والصَّد عن الصراط. والتحصن منه، يتجسد في مبدأ التقوى، ذلك أن "السلوك الذي تحكمه التقوى، يمنع النَّاس من التعدي، وإذا تعدوا، فإنَّ التقوى تؤدي بهم إلى التوبة، وتعديل انعدام التوازن في شخصياتهم"(٨٠).

ومن هنا، فإن تشريع التوبة يتناسب مع ما يكتنف الإنسان من ضعف، وضرورة العودة إلى الأخلاق النبوية، والسمو نحو الفضيلة. ومن ثم، ممارسة الضبط النفسي حتى تقوى موحيات الحق في النفس. وهذا الضبط تقتضيه الطبيعة الإنسانية، وما يعتريها من القوة والضعف والصلاح والفساد. إنَّ الصفات التي يتسم بها هذا المخلوق من العجلة، الظلم والجهل، جحود النعم، الجدل، القنوط، كلها تدفعه إلى الأخطاء وتجاوز الحدود المؤطرة للحركة الإنسانية. ولهذا شرع الله التوبة ليعيد للإنسان توازنه المفقود. وجعل هذا الباب مفتوحًا أمام العباد إلّا على أولئك الذي يصرون على الخطأ، ويتورطون في المعصية أكثر، فيحيون على مستوى النفسية المنحرفة، وغياب شروط الفعل الأخلاقي. وفي ضوء هذا المنطلق، تكون التوبة تشريعاً قوياً لاستعادة التوازن المفقود في الفعل، واسترجاع النظر الأخلاقي السديد، وفتح آفاق الرحمة الربانية، وإيقاظ الحس والضمير حتى يستيقظا من دواعي الغفلة، والإرباك إزاء المعاصي التي يقترفها الإنسان أمام اختبارات التكليف. هذا يعني العودة إلى الوضع الإيجابي للإنسان السوي، المنفتح على قيم الحق ومنهجه، والتصالح مع الله. والتوبة حدها قادرة على تحويل الاتجاه نحو الوجهة الصحيحة، وهذا التحول هو نقطة انعطاف حاسمة في الانتصار على الأخطاء، ودروب الإغراء؛ بل تستطيع أن تعيد الإنسان إلى مركز الحق، فهي طاقة إيجابية تدفع بالجهود إلى الوضع الأسمى. إنَّ الاعتراف بالخطأ هو المقدمة التمهيدية لميلاد الحياة الأخلاقية النظيفة، وبداية منهجية لسلامة المجال الداخلي للإنسان. ذلك أن التحرر من وطأة الذنب وثقله، وما يعقبه من الندم من هذا السقوط المتهاوي، والعزم على تصحيح الأخطاء وإصلاح الذات بالأعمال الصالحة، بعدما أرهقت في اتجاه معاكس للفطرة هو بداية الجادة. يجلي ابن

٨٠- فضل الرحمن، **المسائل الكبرى في القرآن الكريم**، ص٧٦.

قيم الجوزية حقيقة هذه التوبة بقوله: "هِيَ النّدم على ما سلف من الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم أن لا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع ويعزم. فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة"(٨١).

وبناءً عليه، فإن تشريع التوبة يعتبر من الأصول المهمة التي تدعو المذنب إلى الانخراط في دائرة الرحمة. وممّا يؤكد أهميتها، أنَّ الله جعلها مدخلًا مهمًا ومرتبةً تترقى فيها زوجات النبي لبلوغ المستوى الأعلى في سلم العبودية. فهي وحدها تعتبر من الوجهة الفكرية، آلية منهجية للاستقامة. وهي التي ترصد الفكر والسلوك في مدى استوائه على المنهج أو انحرافه عنه. ولأن التعثر أمر وارد، أيّا كانت رتبة الإنسان، فهو غير معصوم عن الزلل والأخطاء. إنَّ آدم لما زلت قدمه في المعصية الناتجة عن غواية إبليس، يقف عند الذنب، وإنما استنهض طاقته الأخلاقية، وحرك كينونة المعنى، وفجر ينابيع الحس، بحجم الخطأ الذي وصفه الله بالزلة، ونسيان ميثاق الله وعهده. وسرعان ما عاد لوعيه ورشده، وصحح المسيرة البشرية، بتوبة أقرها الله، ثم جدَّد علاقة الإنسانية بالرحمة الإلهية، وفتح الله بتوبته الباب للإنسانية، كي تعود إلى الرشد. وهكذا يسجل آدم الانتصار على أكبر قوة معادية للحياة المستقيمة وهي: الشيطان، النفس. ومن هذا المنطلق، يكون تشريع التوبة منسجمًا مع طبيعة الإنسان، التي ليست خيرًا مطلقًا، فهذه سنة الملائكة، وليست شرًا مطلقًا، فهذه طريقة الشيطان المتمرد، وبقي الإنسان، يتردد بين الطاعة والمعصية، يزاول الصعود كلما آل به الوضع إلى السقوط. وهذا طبع الآدمية الشريفة لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(٨٢). وفي ذات السياق، يدعو الله نساء النبي إلى التوبة، وتصحيح الأخطاء الصادرة عن المتظاهرات والرجوع إلى الله، وتزكية أنفسهن، وتنقية الأعماق من متعلقات الدنيا والعودة إلى موقع العبودية، انطلاقًا من إعادة

٨١- ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج١، ص٢٠٠، ٢٠١.

٨٢ - سورة التحريم، الآية: ٠٨.

النظر في أدب النبوة، حتى يزددن مهابةً وأدبًا. إنَّ خطاب التوبة، يعتبر انقلابًا في الروح، يهز النّفس ويحرك الإحساس، ويقرع الضمير حتى يثوب للرشد، بما يفرض على أمهات المؤمنين إعادة النظر في طريقة التعامل مع التكاليف، وتتخذ كل واحدة منهن موقفًا جديدًا إزاء علاقة زوجية، تتحرك في إطار منهج النبوة، وإعادة برمجة الأقوال والأفعال في ضوء المنهج، ومدافعة النزوات التي تهدد استقرار البيت النبوي. إنَّ المتتبع لحركات الأنبياء، يرى بأن التوبة كانت محطة فاعلة في دعواتهم. وهي مادة حيوية في تصويب العلاقات الزوجية وسلامتها.

ولما كانت التوبة رجوعاً إلى الصراط المستقيم، وذلك يحصل بهداية الله، فقد خاطبهن للارتقاء عبر آلية التوبة، فهي بمثابة الشرط الأخلاقي في عدم استبدالهن، بمن تحققت فيهن سمات الخيرية. وبهذا يدعو الله إلى الخروج من التجليات الشكلية للتقوى إلى التجليات المنبثقة من أعماق الإيمان. وهذا ما يجعل نساء النبي في وصلة مستمرة مع الحق، تتحقق معها الأوبة بعد كل غفلة. عصارة القول، أنَّ التوبة كمسلك عملي، هي تصحيح للعلاقة مع الله، وتقويم لمردود العلاقات الاجتماعية. إذ لا تكفي التوبة بالإقلاع عن الذنب، وإنما ينبغي الانخراط في معركة البناء، وتشييع الخير في الأسرة، والانفتاح على العمل الصالح، ودفع المضار التي تهدد بيت النبوة، والمساهمة الفعلية في تطوير الواقع، وتحسين مردوده. ومن هنا، فإنَّ أبعاد التوبة، لا تتوقف عند تحرير الإنسان من قبضة الأخطاء، وإنما تفتح آفاقًا للتصالح مع جميع الأنساق العمرانية. فيظهر مردودها في حركة المجتمع. إنَّ التوبة من المبادئ التي تضبط البوصلة على الخط المستقيم، وما يولده التصالح مع الله من آثار جمالية، والعودة إلى التناغم الفكري والعاطفي بين عناصر الأسرة. وإزاحة الضغوطات النفسية، وإذابة الاختلافات. وكل هذه المولدات تعود على العلاقة الأسرية بالضبط والتقويم، بما يجعلها تستعيد بوصلة الإيمان، وتؤدي وظيفتها الهادفة، وتكتسب المرونة في التعامل مع معطيات الواقع.

٤: العبادة

جاء في **مقاييس اللغة**: "العين والباء والدَّال أصلان صحيحان، كأنّهما متضادان، الأول: يدل على لين وذلّ. والآخر على شدة وغلظ. فالأول: العبد، وهو المملوك، والجماعة العبيد... يقال: هذا عبد بين العبودة، ولم تسمعهم يشتقون منه فعلًا، ولو اشتق لقيل عبد، أَيْ صَارَ عَبْدًا وأقرَّ بالعبودة، ولكنّه أميت الفعل فلم يستعمل، قال: وأمَّا عَبَد يعبد عبادةً، فلا يقال إلَّا لمن يعبد الله تعالى... فالمتعبد: المتفرد بالعبادة. واستعبدت فلانًا: اتخذته عبدًا"(٨٣). وبناءً عليه، فإنَّ العبودية: هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٨٤). والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير، وهو كما ذكرناه في السجود، وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق، وهي المأمور بها في قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾(٨٥)"(٨٦). وفي ذات السياق، فإن العبودية مرتبة سامقة في سلم المطالب الإلهية، وأصل العبودية الخضوع والتذلل. وعليه، فإنَّ العبادة تعني الطاعة مع الخضوع والذلة، يقول تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾(٨٧). يعني ذلوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالرّبوبية، وأخلصوا له الخضوع والذّلة بالانتهاء إلى أمره والانزجار عن نهيه"(٨٨). ومن هنا، فإن العبادة: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة"(٨٩). وإذا كانت

٨٣- أحمد بن فارس، **مقاييس اللغة** (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م) ج٤، ص٢٠٦.

٨٤ - سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

٨٥ - سورة البقرة، الآية: ٢١.

٨٦- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج١، ص٥٤٢.

٨٧ - سورة النساء، الآية: ٣٦.

٨٨- ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٧، ص٥.

٨٩- تقي الدين عبد الحليم بن تيمية، **العبودية**، ت: محمد زهير الشاويش (بيروت: المكتب الإسلامي، ٢٠٠٥م) ط٧، ص٤٤.

العبادة هي استقامة حركة الإنسان الظاهرة والباطنة على منهج الله، فقد كان عليه السلام النموذج الأكمل في مقام العبودية، فقد وازن في مساره بين القول والفعل، والمبدأ والواقع، والظاهر والباطن، فاستحق أن يكون نموذجًا للقدوة العبادية. وترقى في جميع الكمالات الأخلاقية، فمدحه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٩٠). وفي هذا السياق، فقد "عاش النبي مستقيمًا مثل شعاع الضوء، وأوصى بالاستقامة بعد أن حققها في نفسه إلى ذروة ما بين الإمكان والوجوب، إلى ذروة ليس وراءها سوى الصدق الإلهي لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾(٩١)"(٩٢).

ومن هذا المنطلق، تكون العبادة، ترقية للجوانب الروحية والنفسية في الشخصية،والعمل على تكميلها، وتحقيق توازنها، وقد أخذت العبادة في القرآن أبعادًا شاملة، تتسع لجميع أنواع النشاط، وتهيمن على جميع الأداءات التي يرتادها الإنسان. ولا يمكن بلوغ رتبة الكمال إلّا بربط حلقات هذا الدين داخل الكيان النفسي والفكري، والتحرك على خط العبودية، وتدريب الإنسان على اكتساب السلوك السوي، وأخلاق المعاملة في نطاق الإحسان وجمالياته. وهي في جوهرها، حركة مستقيمة وتدريبية لتحسين الأداء في استثمار الصالحات. والإيمان ليس مجرد شعور يقبع في الضمير أو تصديق بالقلب؛ وإنما هو طاقة باعثة على التحرك نحو العمل الصالح، الذي تتقوم به الجهود الاستخلافية. ويحمل خاصية الصعود عبر آلية العمل، وليس كل عمل مؤهل لهذه الممارسة العبادية؛ بل هو العمل الصالح الذي تستقيم حركته نحو الأعلى. وفي هذا الإطار، نفهم خطاب الله لبيت النبوة، وهو يعيد فحص دعائم الأسرة في ضوء هذا المفهوم لإعادة تأطير العلاقة الزوجية في سياق الهدف الأسمى للوجود. وما لهذا التأطير من أهمية على مستوى الفكر والعمل، ومسؤولية كلا الزوجين في التحقق بهذا الهدف. ذلك أن العبادة هي المظهر الأرقى في الخضوع لله، وما يقتضيه

---

٩٠ - سورة القلم، الآية: ٤.

٩١ - سورة النجم، الآية: ٩.

٩٢- محمد فتح الله كولن، **النور الخالد**، ص٨٠.

من طاعة لله. وبناءً على ما قلناه، فإنَّ القرآن في توصيفه لنساء النبي بهذه السمة، تأكيد أن جوهر وجودهن في بيت النبوة يتم بتجسيد هذا الهدف.كما أنَّ الله لا يريد لنساء النبي عبودية تعزلهن عن أداء دورهن الاجتماعي في الحياة الدعوية، وهو الذي دعاهن إلى التفاعل مع وظيفة الذكر لآيات الله والحكمة، ذلك أن هذا البيت هو المصدر الذي تتلى فيه آيات الله، وتتفاعل مع مقتضيات الحكمة. وعلى نحو مماثل، فإن هذه العبودية تجسد في مداها الأقصى حقيقة الانتماء لله، ومنهجه، ممَّا يعني أن قواعد الزوجية تقوم على هذه الدعامة، وتتأسس الأسرة على قيم داعمة لهذه الوظيفة. وما لها من دور فاعل في الواقع، تؤطر الفكر وتضبط السلوك، وتصحح الأخطاء، وتتحكم في الدوافع الذاتية، وتهذب الخلق. وبتعبير أدق، فإنَّ العبادات التي أمر بها "تدعيم للفطرة، وترويض للهوى، ولن تبلغ العبادات تمامها، وتؤدي رسالتها إلّا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالي، والمسلك المستقيم"(٩٣).

وقد جعل الله للأهواء ونوازع النفس ضوابط أخلاقية تكبح جماحها. وشرع المنهج الوسط لتحقيق هذه الموازنة. وقد لا حظنا أن سلوك نساء النبي، ناتج عن دوافع الغيرة التي استبدت بهن. ولهذا جاءت هذه الآيات، تدعو عبر هذه المواصفات، أن تخضع زوجات النبي إلى عملية الضبط على مستوى الفكر (البرمجة الفكرية)، وعلى مستوى السلوك (الحيز العملي)، وتعيد تأطيرهن لنشدان الكمال في نسقه الأعلى. وكأن القرآن يريد ترويض هذه القلوب الطاهرة بالعبادة، لتزداد تواضعًا لله ورسوله. وهذا التعبير(عابدات) له أهمية خاصة، لما يحمله من الإجلال العميق، الذي ينبغي أن تشعر به نساء النبي، وما يتطلبه من ترويض للقلب حتى يخضع لله في سكينة ووقار. وبفضل هذه الطاقة العبادية، يواجهن الدنيا ومغرياتها، ويمارسن الواجبات الدعوية في المحيط المجتمعي. إن مسؤولية الذكر والحكمة، توضح أنهن لم يخلقن لتنفيذ مشاريع دنيوية، وإنما خيرن لأداء مشاريع أخروية، وتعبئة الجوانب المعنوية للمجتمع بالقيمة الأخلاقية، بما يجلي مواصفات

٩٣- محمد الغزلي، **خلق المسلم** (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٢م) ط١، ص٢٧.

العبودية في أنموذج الخيرية. وهكذا يبدو لنا أنَّ جميع العبادات، تصب بجميع روافدها في نقطة واحدة، وهي إعلاء الشأن الأخلاقي في الأمة. فجميع العبادات هي روافد للتطهر، وتزكية لمصفاة البشرية، كي تحسن التلقي عن الله. لقد انتخب القرآن هؤلاء النسوة لشرف الزوجية. ولا بد لهذا الانتقاء من تكلفة تجانس هذا الاصطفاء. ولم يكن ذلك سوى الأخذ بمعطيات المنهج، وتفعيل أدوات التواصل، وتحقيق الاستثناء في أرقى مستوياته. لا تختلف آراء المفسرين، عما أوردناه، فقد جاء الحديث عن العبادة بمفهومها الشامل، يقول الطبري: "متذللات بالطاعة"(٩٤)، وفي قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٩٥)، العابدون: هم الذين ذلُّوا خشية لله، وتواضعًا له، فجدوُّا في خدمة الله"(٩٦). وفي ذات السياق، فإنَّ العبادة: "أداة الاتصال بالله، بالتعبير عن العبودية له"(٩٧)، ومن ثم، هم "العابدون لله ربهم وحده، مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة، ولا يتقربون إلى سواه بعمل ممّا يقصد به القربة ومثوبة الآخرة"(٩٨).

ومن معاني العبودية في هذا السياق، ترويض قلوب نساء النبي حتى يستشعرن عظمة الله، الذي أكرمهن بالسكنى في بيت النبوة. هذا الكرم المضاف، يقتضي مزيداً من التواضع لهذا الزوج، الذي اجتمعت فيه خصال الكمال، فاستحق أن يكون القدوة النموذجية على خط الإنسانية. إن هذا التشارك العبادي يجعل العلاقة الزوجية تتسم بالسماحة والتواضع، ويتحمل كلا الزوجين مسؤوليتهما، فتتحقق مقاصد السكنى، وتتعزز هذه العلاقة، بما يديم العشرة الزوجية، ويحفظ

٩٤- ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٣، ص٤٨٩.

٩٥- سورة التوبة، الآية: ١١٢.

٩٦- المرجع نفسه، ج١٤، ص٥٠١.

٩٧- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٦١٦.

٩٨- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار** (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م) ج١١، ص٤٢.

قدسيتها. وتتوثق هذه الرابطة، عندما يخطان هدفًا واحدًا، بما يحمل الحياة الزوجية على مزيد من النضج والعطاء والاستمرارية. وما أرقى هذا المفهوم من الزاوية الإنسانية، لما يحمله اللفظ من معاني التواضع للطرف الآخر، فكيف إذا كان هذا الطرف هو النبي عليه السلام. وفي ضوء هذه المولدات الأخلاقية، تستقيم الحياة الزوجية، وتثمر ذرية طيّبة. عصارة القول، أن الله سبحانه أعاد صياغة مشروع الأسرة من خلال إعادة تأطير بيت النبوة، بإرساء الدعائم الأسرية، بتحرير بيت النبوة من الارتباطات الدنيوية، حتى يثوي الجميع إلى الله. وركز على الأساس العبادي، لكونه الهدف الأسمى للوجود، والمشاركة الكونية في مظهر الخضوع والتسليم لله، وعبر الصراط المستقيم تتقوم جهود البيت النبوي. وإنما أراد الله ترسيخ مفهوم الوحدانية عبر آليات عبادية متنوعة لتوحيد مشاعر نساء النبي وأفكارهن، وترويضهن على مبدأ التواضع لله.

٥: السياحة

يقول ابن فارس: "السين والياء والحاء أصل صحيح، وقياسه قياس ما قبله، يقال: ساح في الأرض، ومنه قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾[٩٩]"[١٠٠]. جاء في **المفردات**: "السائحون: الصائمون، والصوم: هو حفظ الجوارح عن المعاصي كالسّمع والبصر واللسّان، والسائح: هو الذي يصوم هذا الصوم دون الصوم الأول، وقيل: السائحون: هم الذين يتحرون ما اقتضاه قوله، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[١٠١]"[١٠٢]. وبالنظر في أقوال المفسرين، نلاحظ أن أغلبهم فسر السائحات بمعنى الصوم أو الهجرة، ومنهم من خرج عن هذا السياق المألوف، ووسع دائرة هذا المفهوم، وهو نوع من النظر المتبصر في دراسة هذا المصطلح، من باب أنه يحيل على الانطلاق

---

٩٩ - سورة التوبة، الآية :٢.

١٠٠- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٣، ص١٢٠.

١٠١ - سورة الحج، الآية: ٤٦.

١٠٢- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج١، ص٤٣١.

والخروج، ومغادرة الأوطان، والتأمل الواعي في الملكوت، ومنهم القشيري، يقول: "هم الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلبًا للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر في جوانبها ومناكبها... يسحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقق بشهود الحق"(١٠٣). وفسر القاسمي السياحة بقوله: "هم "الضاربون في الأرض تدبرًا واعتبارًا"(١٠٤). من الجدير بالملاحظة، أنه نبه أنه ما من داعٍ يحمل المفسرين على المعنى المجازي في قوله: "ذهب الكثير من المفسرين إلى أن المراد من سائحات: صائمات، أو مهاجرات، وقد قدمنا في سورة التوبة في تفسير (السائحون) أنَّ الحق فيه هو المعنى الحقيقي لعدم ما يمنع منه، ولا يصار إلى المجاز إلّا لمانع، ولذا قال بعض المحققين: إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء، كما هي كذلك للرجال، فمعنى قوله: سائحات، مسافرات سواء كان السفر لهجرة أو اطلاع على آثار الأمم البائدة، وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهن"(١٠٥).

وفي ذات الاتجاه، سار محمد رشيد رضا: "السائحون في الأرض: هم الذين يجوبون الأقطار لغرض صحيح من علم أو عمل، كالجهاد في سبيل الله"(١٠٦). وفي تفسير سائحات من سورة التحريم بالصائمات، يقول: "وتعلق مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الأرض، وإنّما يحظر في الإسلام سفر المرأة متفردة دون زوجها، أو أحد محارمها، وأمّا إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم، حيث يسيح لغرض من علم نافع أو عمل صالح، أو طلب الصحة، أو الرزق، فلا إشكال في مدحها بالسياحة؛ بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال

١٠٣- عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، **لطائف الإشارات**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب) ط٣، ج٢، ص٦٧.

١٠٤- جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، ت: محمد باسل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ) ط١، ج٥، ص٥١٠.

١٠٥- المرجع نفسه، ج٩، ص٢٧٦.

١٠٦- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج١١، ص٤٢.

الحياة النافعة"[١٠٧]. وبناءً على ما قلناه، فقد وسع القاسمي دائرة المفهوم بقوله:"وكأن الآيات بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة نازلة من السماء، ليست للأمة جميعًا، بل للنصف منها وهو الرجال، وحاشا أن يكون ذلك هديه عليه السلام في سفره مع أزواجه، فقد كان يقرع بينهن، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها، وسافرت معه"[١٠٨]. وتشمل "كل سياحة في سبيل الله، فتشمل السياحة في الجهاد، والسياحة في نشر الإسلام، والسياحة في التعرف على أحوال المسلمين، كما تشمل سبح الفكر سائحًا في ملكوت الله"[١٠٩]. وبخصوص اتجاه عدد من المفسرين إلى أن المقصود منها الصيام، فهذا فيه تكلف، وإخراج للمصطلح ليس فقط عن دلالته اللغوية؛ بل أيضًا عن سياقه القرآني، ذلك أن في آية التوبة في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١١٠]. يتحدث السياق عن ظاهرة الجهاد في سبيل الله، وشراء النفوس المؤمنة مقابل الجنّة، مقررًا حقيقة مفادها: أنَّ الأنفس والأموال، تجسد من الزاوية القرآنية، ثمنًا لعملية الشراء، وتزداد هذه العملية قيمة كبرى، إذا ما نظرنا أن المشتري، هو الله، والبائع هم المجاهدون في سبيل الله، والثمن هو الأنفس والأموال، والربح هو الجنّة. ولم يكتف الله ببذل البشرى لهم فقط، وإنَّما قدم الضمانات الأخلاقية على الوفاء، ومن أوفى من الله عهدًا. ويتأكد لنا في هذا السياق، أن تتجه فكرة السياحة إلى الجهاد في سبيل الله. وقد ربط هذا المفهوم بغنائم الربح الخالد (الجنَّة)، ممّا يكشف عن قيمته عند الله، وأنه في أعلى مراتب السياحة. ثم يقدم الله قائمة من الصفات العبادية، التي ينبغي أن تتجسد فيمن يسوح للجهاد في سبيل الله، "التوبة، العبادة، الحمد والشكر، السياحة، الركوع والسجود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حفظ حدود الله". وتكتمل حقيقة هذا المفهوم في سياق دلالته المتمثلة

١٠٧- المرجع نفسه، ج١١، ص٤٣.

١٠٨- جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٩، ص٢٧٦.

١٠٩- محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، **زهرة التفاسير** (دار الفكر العربي)ج٧، ص٣٤٥٦.

١١٠ - سورة التوبة، الآية: ١١٢.

في صفات الشخصية المجاهدة.

ومن ثم، فإن الدلالة الأقرب هي الخروج إلى الجهاد، وليس الصوم، لأن الآية لم تتحدث عن الشعائر الدينية المتمثلة في أركان الإسلام من صلاة وزكاة التي تدخل في المعنى العام للعبودية؛ بل ركزت على معاني مخصوصة، هي من مشتملاتها، كالخروج للجهاد، وما في ذلك من إشارة إلى ثقل تلك العبادات على النفس، إذ ليست ميسرة للجميع؛ بل تتطلب مستوى معين من الإيمان لتحقق واقعًا، وتخرج من التجلي الشكلي إلى التجلي الداخلي، فتجعله في توبة محققة لمعنى الأوبة، وعبودية ملؤها الحمد على نعمة الوصل والامتثال. وهذا ما لا يبلغ تمامه إلّا بالاستعداد لترك الموطن والخروج منه، إن لزم الأمر تحقيقًا لشكل من أشكال الجهاد، وأيضًا بالانخراط في أوثق نماذج العبودية وأعرقها، والتي لم تخل منها شريعة، ألا وهي الركوع والسجود، فالآية لم تتحدث عن الصلاة، رغم أن الركوع والسجود قوامها، وهذا مستوى داخلي فردي، كأنه وقود للتقوية الذاتية، وبلوغ التقوى في المجال القرآني. يقابله مستوى اجتماعي، يضمن الاستمرارية عبر الزمن، والانتشار عبر المكان، وهنا أدخلت آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أدخلت الحدود المؤطرة لسلوك المستقيم، لكي لا يتماهى مع معطيات الحياة، وتجاذبات الواقع، وتفاعل الثقافات؛ التي لا غنى عنها لمن يستجيب لدعوى السياحة، سواء كان الخروج فيها للنصرة أو كان للدعوة، وكلاهما جهاد لا يقل أحدهما عن الآخر في ضمان الاستمرارية للفكرة. يجدر بالملاحظة، أن المفسرين حملوا المفهوم على هذا المعنى، وتتكرر نفس العبارات دون أي اجتهاد عدا بعضهم، وجلهم يرجحون المعنى المجازي، وكلهم تقريبًا يورد بصيغة التضعيف المعنى الأقرب ألا وهو الهجرة، باعتبارها خروجًا من الموطن في سبيل الله، ويلاحظ أن آية التحريم، جاءت مؤكدة لأغلب المعاني الواردة في سورة التوبة، غير أنها خاصة بنساء النبي عليه السلام، والأخيرة عامة لكل المؤمنين. والحديث عن العبادة شامل لتفاصيلها الشعائرية.

ومن ثم، فربط مفهوم السياحة بالصيام لا يستقيم. في حين لو ربطناه بالهجرة يكون أبلغ،

لأن من تواطأ عليه اثنتان من المهاجرات. وكانت الهجرة مرتبة من مراتب التميز في درجات الإيمان و القرب من الله لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾(١١١). وأشار إلى الثيبات والأبكار، لأن أمنا عائشة كانت تفتخر بكونها بكرًا، واعتبرت ذلك معيارًا للأفضلية على غيرها. ومن ثم، فالآية فيها تصحيح لمعايير الأفضلية بين نساء النبي، وبما أن معيار الهجرة كان معتمدًا، فقد نصت الآية على إمكانية تعويضهن باللواتي يستوفين ذلك، بما في ذلك الاستعداد للضرب في الأرض، وابتغاء رضوان الله. وأوضح في تراتبية مركزة هذه المعايير، وليس هذا فحسب؛ بل أعاد تأطيرهن حتى ينزعن إلى دواعي الأفضلية، كما تقررها مواصفات الخيرية. خلاصة القول، أنَّ هذا المفهوم يحتاج إلى مزيد من النظر والتبصر، استنادًا إلى موارده وسياقاته. وقد أبرزنا بعض الإشارات في محاولات لإطلاقه وتوسعته(١١٢).

المطلب الثالث: القيمة الإيمانية للخصوصية الزوجية في ضوء سورة التحريم

من الملفت للنظر، أنَّ القرآن لم يغط على الأحداث الصادرة عن نساء النبي في دائرة الزوجية، لأن قانون الله لا يتأسس على القرابة والصلات الدنيوية، ولا يقدر الأفكار والمشاعر في غير موضعها الصحيح. ومن هنا، نقرر أنَّ وصلة نساء النبي بمقام النبوة، لا تعطي مبررًا للتغطية على الأخطاء، فيما يتعلق بإفشاء الأسرار الزوجية، وإن كن في محل القرب منه، باعتبار الزوجية، ولا يعطيهن الحق في الخروج عن ضوابط التشريع. هذا يحيلنا، أن المستقيم هو من استقام في نفسه، وطريقة سيره، وقد انخرم هذا المفهوم في التعامل مع أدب النبوة وحق الزوجية، بإفشاء سر النبي والتظاهر عليه. وعبر القرآن عن هذا بالصوغ. ويجدر بنا أن نوضح أن القرآن يتعامل مع الأحداث

---

١١١ - سورة التوبة، الآية: ٢٠.

١١٢- يقول خالص جلبي: "انتبه كل من رشيد رضا والقاسمي لمعنى السياحة عند المرأة أنه مفهوم قرآني مغيب، في الوقت الذي اصطدم الآخرون بكلمة سائحات، ضمن ثقافة ترى المرأة حبيسة الجدران، فلم يكن أمامهم إلّا الاستعانة بآلية توليد المعاني من الألفاظ.. وهكذا أصبح معنى السائحات بشكل ما الصائمات". خالص جلبي، **فلسفتي** (دمشق: مركز الناقد الثقافي، ٢٠٠٩م) ط١، ص١٤٩.

في إطارها السنني، ولا يلتفت للقرابة، مهما بلغت وصلتها بالنبوة، وهذا دلالة على موضوعية القرآن في منهجه النقدي، وتحرير الأفكار في نقد السلوكيات أو بناء العلاقات، لما يتعلق الأمر بالانحراف عن القيمة الثاوية خلف الخطاب. ولم يغض الطرف عن آلية التقويم لأي سلوك يجافي الحق، وما يقتضيه مقام النبوة من حرمة وإجلال. ولهذا جعل آلية التقويم حاضرة بقوة، في حالة عدم الانضباط على مسار الله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(١١٣). وتتجسد آليات التقويم في التوبة، والرجوع إلى خط الله ورسوله، وليست التوبة سوى قيمة من قيم الضبط النفسي لمسار الإنسان وتصويبه. فإن لم يتبن إلى الله، فإن الله وضع آلية أكثر خطورة على الصعيد النفسي والفكري، تتمثل في الطلاق واستبدالهن بنساء أكثر خيرية. وليس معنى هذا، أن القرآن يدعو نساء النبي إلى التمثل المطلق للاستقامة، باعتبارها قيمة محورية في القرآن، وإنما هذا التدرج في الخطاب دلالة أنَّ الله يريد أن يرتقي بنساء النبي في سلم القيم، على قدر الإرادة والإمكان لبلوغ رتبة الكمال لقوله عليه السلام: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"(١١٤). وقد أكد القرآن على حفظ الخصوصية الذاتية، وحرمة إفشاء الأسرار الزوجية، وهو يؤصل مبدأ السرية للحفاظ على سلامة الميثاق المقدس، ويربي النفوس على هذه القيمة الأخلاقية، والله هو مصدر القيمة لقوله سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾(١١٥).

وبناءً عليه، يبدو الله أصل الأدب كله، وهو يتحدث عن الخلل في الأسرة النبوية، دون أن

---

١١٣ - سورة التحريم، الآية: ٤.

١١٤- البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأنبياء، رقم الحديث: ٣٢٣٠، ج٣، ص١٢٥٢.

١١٥ - سورة طه، الآية:٠٧.

يشيع هذا السر[١١٦]، ذلك أنَّ الله يريد أن يثبت فكرة السرية في العلاقات الزوجية، حتى لا تنحرف عن مثلها الأعلى، ولله المثل الأعلى. والرسول هو النموذج التطبيقي الذي ينشد الحقيقة، ويستجيب لها في مطلق أحواله، ويتأدب بأدب ربه، فيتكتم عن هذا السر الذي أذيع من قبل زوجاته، وهذا في حد ذاته نهج تربوي يؤصله القرآن، كمبدأ في الممارسة التربوية، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١١٧]. وقد أفصح النبي بمقدار ما يثبت خيانة سر الزوجية. ومن المعلوم، أن الله ينشد الحقيقة، ولا يقدس الأشخاص، مهما كانت قيمتهم الدينية ووصلتهم بالحق، وإن كن زوجات أنبياء الله ورسله.كما أن المبدأ القرآني لا يحتمل منطق الازدواجية، ولا يطيق الصبر عن الأخطاء، دون أن يجري عليها تعديلًا على مستوى الفكر أو السلوك. ومن هنا، فإن القرآن يعلمنا فلسفة النقد، كمبدأ معرفي، يحمي الحقيقة، ويفتح المجال للتناصح الإيجابي في بينية العلاقات، وخاصة الدائرة الزوجية، للحفاظ على حيوية المبدأ وفعاليته الاجتماعية. ومن هذا المنطلق، فإنَّ القرآن ينشد الفكرة، لأنها المظهر الأرقى لصحة جميع الأنساق العمرانية. كما نلاحظ أنَّ آيات التحريم، وإن كانت تحوم حول الأسرة النموذج، فإنَّ الفكرة الثاوية خلفها هي تأطير العلاقات الزوجية، وبناء المنظومة الأسرية على قواعد النقد البناء، وتصويب الأخطاء، للحفاظ على سلامة الأسرة ومقاصدها العمرانية. وتقديم الإضاءات العبادية التي هي بمثابة مشروع أخلاقي، تتأسس عليه المنظومة الأسرية. وهذا يحيلنا على قضية فكرية ذات أبعاد خطيرة على مستوى الواقع. تتمثل في إعادة ضبط القرآن لمعايير الأفضلية في مفهوم زوجات النبي، بناءً على التصور المستقيم الذي يحكم العلاقات الأسرية. إنَّ الله بحكمته يدرك أنَّ مواصفات الخيرية التي ينشدها لن يستطيع الإنسان بلوغها فكرًا وعملًا. لهذا قدم نموذج الزوجة الصالحة للبناء في صورة النماذج المثالية التي تشع بالخير والحكمة، ولا خير في علم لا

١١٦- يعرف السر بأنه: "الحديث المكتم في النّفس" **المفردات في غريب القرآن**، ج١، ص٤٠٤.

١١٧ - سورة التحريم، الآية: ٠١/ ٠٣

تضبطه حكمة، ولا تشفعه عملية تزكوية لتغيير الواقع الاجتماعي.

من المعلوم، أن التقوى معيار التفاضل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١١٨]، وفي ضوئه تنتظم العلاقة الزوجية في إطار حدود الله، لقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[١١٩]. قرّر هذا المقطع أن نساء النبي متفردات، ولسن مثل باقي النساء، لأنهن ينتسبن إلى بيت النبوة، وهذا ليس تشريفًا، وإنّما الأمر يتطلب القيام بواجبات العبودية، والاستقامة على التقوى، وليس للعلاقة الجامعة بالنبي. وفي هذا المضمار، فإنَّ صفة الزوجية والانتماء للنبي، ليست مؤشرًا على الرفعة والتميز إلّا إذا استقمن على منهج النبوة، ذلك أن الانتساب للزوجية، ليس معيارًا للأفضلية، وإنّما بناء وصلة اقتدائية بالنبي والانخراط في مسلكه، هو وحده عدة الانتماء وبرهان الانتساب، ولهذا جاءت السورة لإعادة رسم خريطة للحياة الزوجية، وبناء الوعي بأنَّ الصلات البشرية لا قيمة لها، إذا لم تبن على السمات المميزة لنموذج الخيرية، وهذا يقتضي المزيد من البذل والسعي الجاد على طريق المسؤولية، ومقتضيات الإيمان والعبادة. إضافة لما قلناه، فإن تشريعـات الله لا تبنى على مراعاة العلائق، وإنّما هذه الوشائج تكتسب قيمتها في سياق المنهج وأحكامه. ومن الضرورة بما كان، أن نؤكد أن آيات التحريم قدمت توجيهات صارمة للمتظاهرات، بعدما وضعهن الله أمام خيار أخلاقي في انتخاب وجهة الله ورسوله أو الدنيا ومعطياتها، وكأنَّ القرآن يثير سؤالًا في الكينونة حول مفهوم الفاني والباقي في المنظور القرآني. إن كل شيء تعتركه دنيانا، يفنى كما يفنى كل شيء. وما بقي من الدنيا، سوف يذوب في تفاصيل بدن، وما نقوم به انتقاءً لوجهة الله ورسوله، يكتسب صفة الباقيات الصالحات، هذا ما يجعلنا نعيد النظر في المعادلة، التي يطرحها الله لزوجات النبي، وهن النماذج المتعالية، لأنَّ هذه الموازنة هي معادلة الإنسان الراغب في الخلود. فإن كان الهدف هو الآخرة، فمن الواجب السير

١١٨- سورة الحجرات، الآية: ١٣.

١١٩ - سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

بخطوات الإيمان. وإن كان الهدف جواذب الدنيا الفانية، فإن الله يقدم لرسوله االتسريح الجميل، حفظًا لأخلاقيات العشرة الزوجية. كما يوحي بأنّ الهدف الأخروي، هو مشترك جامع بين الزوجين، فلا يكون أحدهما دنيوي الوجهة، والآخر أخروي الوجهة. ثم أبرز المعايير الأخلاقية، الناظمة للاستقامة على طريق الله ورسوله المتجسدة في المراتب الزكية، التي هي من صميم الرسالة.

في ختام القول، يجدر بنا أن نشير أنَّ السيدة عائشة كانت تفتخر بكونها بكرًا، وباقي النساء ثيبات، واعتبرت ذلك معيارًا للأفضلية، خاصة على أمنا خديجة. فجاءت الآية فيها تصحيح لمعايير الأفضلية عند الله. فقد أكد نبينا لأمنا عائشة أنَّ الله لم يبدله خيرًا منها أبدًا، معددًا خصال السيدة الكاملة، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ النَّبِيُّ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بها خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ:"مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ"[١٢٠]. إنَّ المتأمل في قول أمنا عائشة، يدرك أن معيار الأفضلية في نظرها يستند على شكلانية الأنوثة، ولكن النبي يصحح مضمون الحكم على أمنا خديجة، ويتدرج بوعي أمنا حتى تدرك أن مبدأ الأفضلية يعتمد على المضمون القيمي والفكري، الذي يمثل الشخصية المعنوية لأمنا خديجة، وهو يعدد خصالها وثروتها المعنوية، ووعيها الممتد نحو الخلود، منها قيمة الإيمان، الصدق، البذل، البنوة وإعطاء الامتداد لخصائص آل البيت. إنَّ مبدأ الخيرية، هو أكبر من طموح أرضي يفنى، وأشكال تبلى، وأعمار تقضى. هذا ما جعل نبي الحكمة، يتجه بأفق أمنا بعيدًا، لتدرك أبعاد الشخصية الكاملة. ويعطي عليه السلام سمات التفرد، بوضع العقل على طريق الحكمة، وتصريفه على مقتضى الكمال. ولذا فإنّ الجمالية التي تزين الإنسانة الكاملة رضي الله عنها، وتضيء بإشراقها على قواها الحية، وتمنحنها قوة الأداء باتجاه الإحسان، نظرًا لما نالته هذه الفاضلة من إفاضة جليلة من أنوار الهداية. وبناءً على هذا المعطى، فقد هيأ الله السيدة خديجة

١٢٠- أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مسند عائشة، رقم الحديث: ٢٤٨٦٤، ج٤١، ص٣٥٦.

لدور متفرد، بعد أن أصبح لهوية الإيمان حقيقة، تتملك الوجدان والفكر، وأحدثت نقلة نوعية في نفوس أولئك الكريمات في بيت النبوة. وبما أن الهجرة جزء من معايير الأفضلية، فقد نصت الآية على إمكانية تعويضهن باللواتي اجتمعت فيهن مواصفات الخيرية، بما في ذلك الضرب في الأرض.

يبدو من السياق أنَّ مقام الخيرية هو مقام رفيع، يتم الارتقاء إليه عبر مجموعة من السمات العبادية التي تتدرج من خلالها في مراتب الكمال. وفي تقديم "الثيبات على الأبكار، هنا في معرض التخيير ما يشعر بأولويتهن... وأنه لما كان في مقام الانتصار لرسول الله، وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن، ذكر الصفات العالية دينًا وخلقًا، وقدّم الثيبات ليبين أنَّ الخيرية فيهن بحسب العشرة، ومحاسن الأخلاق"[١٢١]. وفي ذات السياق، نؤكد أن القرآن في تفسير هذه الخيرية، قدم الصفات العبادية والإيمانية التي تمثل القيمة الدينية المميزة للشخصية السوية، ثم عرج على ذكر بعض الصفات الكونية (الثيبات والأبكار)، للتأكيد على أن هاتين الصفتين قيمتهما تتحدد بناءً على ما في الثيبات من مواصفات السلوك المستقيم، والصفات الخيرة من حسن العشرة وتقدير الحياة الزوجية، ومن هنا، فإن المبدأ القرآني يرفض أن يعتمد المعيار القائم على محبة الرجال للأبكار على الثيبات، لأنه اختيار ذاتي يدخل في سياق الاعتبارات الشهوية. ولذلك ألغى القرآن هذا الاعتبار من الوجهة الرسالية لبلوغ مقام الخيرية بتقديم الثيبات عن الأبكار، لما تسمو به هؤلاء النسوة من عمق وتوازن، ومرونة في بناء المواقف، ورجاحة العقل، والتحكم في الأهواء، وعدم الاندفاع نحو نزوات العاطفة. جاء في **نظم الدرر**: "ولما أكمل الصفات الدينية في أمر العشرة، ولم يبق إلّا الصفات الكونية، وكان التنويع إلى عارفة بالعشرة، وباقية في أصل الفطرة ألذ وأشهى إلى النفس، قال مقسمًا للنساء المتصفات بالصفات الست ثاني الوصفين بالواو للتضاد، (ثيبات) قدمهن لأنهن أخير بالعشرة التي هذا سياقها"[١٢٢].

١٢١- محمد الأمين الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن**، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م) ج٨، ص٢٢.

١٢٢- إبراهيم بن عمر أبي بكر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٢٠، ص١٩٦.

المبحث الثاني: مظـــاهر الاختلال في تمثل مواصفـــات النموذج الكامل

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١٢٣). وقال أيضًا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(١٢٤). انطلاقًا من هذه الآيات، نلاحظ اعتماد القرآن على النقد، كآلية فاعلة في تقويم الأفكار وتصحيح المواقف غير المؤسسة على مبدأ معرفي، حيث اتبع أساليب متنوعة للكشف عن الاختلالات المنهجية في بنائية العلاقات، ولم يدار عليها حفاظًا على القيمة الذاتية للأشخاص، رغم ما تمثله النماذج المثالية من قيمة فكرية وعملية، وما تحمله من مخزون قيمي، يوجه نشاطات الأمة، وإنَما تبنى مبدأ الواقعية في الحكم على مردود هذه القوالب المثالية، ومدى تمثلهم لحقائق المنهج. ذلك أنَّ جوهر الحقيقة، أنَّ الله يربي قادةً لا عبيدًا، وتزاد قيمة المسؤولية، تبعًا للموقع الذي يشغلونه. يبدو لنا الاهتمام جليًّا بالأسرة النبوية، لأنها نقطة المركز في وضع المجتمع على عتبة الحضارة، لما تحمله في رصيدها الفكري والأخلاقي من قيم، توجه مسار الأسر المسلمة. ومن هنا، فإن تسمية زوجات النبي بأمهات المؤمنين، له دلالات عظيمة، فهي ليست رتبةً تشريفيةً، أو ألقاب رفعة، إنما هي محمول مفعم بالحساسية الأخلاقية، والالتزام العملي. وكأن القرآن صاغ النموذج المثال مع قليل من المشاغل الأرضية، وجعل فكرة الخير متجذرة في هذه القوالب الأخلاقية، وتتحكم في توجيه نشاط حياتهم باتجاه الهدف الرسالي المنوط بهم. إنَّ القرآن في أنساقه المعرفية، يعالج المواقف والسلوكات، ويركز على سلامة الفكرة، والمسلك الذي ينبغي أن تتحرك فيه، وما يحكمها من ضوابط أخلاقية، وما تتأسس عليه هذه القيمة من منطلقات إيمانية، وأهداف أخروية.

ومن هذا المنطلق، أعاد تأطير العلاقة الأسرية، ووضع القواعد المنظمة لها. كما يبدو جليًا

---

١٢٣ - سورة التحريم، الآية: ٠١/ ٠٣.

١٢٤ - سورة التحريم، الآية: ١٠.

من هذه الآيات التي تكشف عن بعض الاختلالات في الأسرة النموذج، بهدف تعديل السلوك الزوجي، وفحص الأحداث، ومعالجة التقلبات، واستخراج القانون الذي ينظم هذه العلائق، ويعيدها إلى جاذبية الإيمان. إنَّ المدقق، يلاحظ أن الأسرة لا يمكن أن تستقيم دون قانون، ينظم سيرها، ويكون ضمانة استمرارها. ولهذا تضمنت هذه السورة الكثير من التوجيهات الأسرية، وأعادت بناء الشخصية الزوجية، بما يهيئها للترقي، ونشدان الكمال عبر آليات فعالة، منها تقويم الذات ومقاومة الأخطاء الطارئة، والتحكم في النوازع، وضبط النفس. والخطاب للمرأة لكونها الدعامة الرئيسية في العملية التربوية، وإعداد الجيل الذي يواصل مسيرة الإيمان في الحياة. وإذا كانت البنية الأخلاقية هي الكفيلة بحفظ توازن الأسرة، وحفظ مقاصد الدين، فقد قدم العلاجات المناسبة لجميع الأعراض التي قد تخرم الرابطة الأسرية. ومن هذا المنطلق، يؤكد أنَّ المرأة هي الأساس في العملية البنائية. ويرسم صورة متألقة للزوجة المسلمة، وآفاق الارتقاء بذاتها في سلم الفكر والروح، ويصعد بمنجزاتها إلى مواصفات الخيرية المشهودة. إن المتتبع لسياق السورة، يلاحظ أنها أعادت بناء الخصوصية الزوجية في نطاق الأسرة النموذج، لمزيد من التوثقة ومراعاة لهذه المساحة الخاصة. ومن ثم، فإن محور الخطاب يدور حول إفشاء سر النبي من قبل إحدى زوجاته، بغض النظر عن طبيعة السر وقيمته، يكفي أن يكون النبي هو المستهدف بحفظ حقه. ولهذا انتقد القرآن هذا السلوك، واعتبره ميلًا عن الحق، فضلًا عما ينطوي عليه من سوء الأدب مع مقام النبوة، وعدم تقدير للزوجية، ودعا إلى تقويم هذا السلوك في ضوء آلية التوبة. ذلك أنَّ هذا الإفشاء لا ينسجم مع الدائرة الأخلاقية في التعامل مع النبوة، ممّا أدى إلى خلل على مستوى الدائرة الأسرية. ويعتبرهذا السلوك مساس بالدائرة الزوجية. وقد حدّد القرآن درجة هذا الانحراف، عندما سمّاه بالصغو، وهو ميل القلب عن الاتجاه المستقيم.

وأما من الزاوية الفكرية، فقد قارب القرآن في آيات التحريم بين نموذجين للخيانة الزوجية تحت عصمة نبوية، فأما النموذج الأول، فإنه يمثل المستوى الأدنى، ممثلًا في نموذج

زوجات النبي عليه السلام، وتجسدت هذه الخيانة في إفشاء أسرار زوجية، وصف الله هذا الانحراف بالصغو، وهو مؤشر على غياب الاستقامة الباطنية. وقد نبه القرآن إلى خطورة إشاعة الأسرار حفاظًا على مقاصد الاجتماع الأسري، نظرًا لما يترتب عليه من خلل في النسيج الأسري، واختلال توازنه، وفقدان الثقة الزوجية. وهنا يوضح القرآن، بأن الخلل وراء هذا الإفشاء، يكمن في المجال النفسي (فقدان السلامة القلبية)، نتيجة لعدم القدرة على التحكم في الدوافع الذاتية، بما يتطلب إعادة تنظيف المجال الداخلي، وممارسة عملية الضبط الواعي لهذه الدوافع، وبرمجتها في الاتجاه الصحيح. ويهدف بهذه التوجيهات إلى تحرير إرادة الزوجية من الرغبات الدنيوية، والارتقاء بها إلى المثل العليا التي تسمو بالحياة، وتزكيها على خط العبودية. ولهذا طالب بإعادة الوضع إلى بؤرة الصواب، بعدما نهجتا المتظاهرات خط الدنيا، وابتعدتا عن وجهة الله ورسوله. هذا النزوع يحتاج إلى غربلة في المواقف، وتقويم للتفكير وللسلوك، فلو يستمر هذا الميل، سوف يفقد بيت النبوة مساره الصحيح. وإن كان هذا الإفشاء يدخل في سياق الخيانة الزوجية، إلا أن القرآن، يتلطف في الحديث عن هذا الإفشاء، بتسميته إنباءً، وانتقى اللفظ المناسب لخطأ هؤلاء الطاهرات. ولم يصطلح عليه خيانةً لسلامة النوايا والمقاصد، وبناءً على هذا، صوب القرآن هذا السلوك، منبهًا إلى خطورة التظاهر على النبي عليه السلام، وعواقب هذا الإفشاء على صعيد العلاقة الزوجية. ومن نافلة القول، أن نؤكد أن هذا الإفشاء لم يتعد الدائرة الزوجية. وقد أشرنا أن الدافع إليه هو الغيرة، وإن كان لابد لكل دافع من ضابط يؤطر استقامته من الوجهة التشريعية. ذلك أن الغيرة منها ما هو محمود، ومنها ما هو مذموم، وكل شيء يتجاوز ميزان الاعتدال يقع في دائرة الإفراط أو التفريط. وعلى هذا التقدير، تكون الغيرة نوعين: منها الغيرة من الشيء والغيرة على الشيء، فأما الغيرة من الشيء: "هي كراهة مزاحمتِهِ ومشاركته لك في محبوبك، والغيرة على الشيء: هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك"(١٢٥).

١٢٥- ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٦م) ط٣، ج٣، ص٤٥.

تعبير أدق، فإنَّ الدوافع ذاتية، لا تتجاوز المحيط النفسي، ومع ذلك، حذرهن الله من الاستمرار في هذا السلوك. هذا يعني، أنَّ الخلل ليس في المعتقد، وإنّما في السلوك. ولأن الله يعرف طبيعة النفوس وعدم انضباط دوافعها، عالج مفهوم الخيانة على مستويات متعددة، فأمّا إفشاء أسرار الزوجية، فيدخل في إطار المستوى الأدنى، ولم يصطلح عليه القرآن خيانةً، لأنَّه لم يتعد دائرة الزوجية. فهو لا يتعلق بالدائرة النبوية. فتتأثر به حركة الدعوة والرسالة، ممّا يعني أنَّ هذا الإفشاء لا يتعلق بالخيانةالدينية، التي جعلها الله محلًا لضرب المثل. ومع ذلك، فإنَّ التوجيه الإلهي الصادر لهؤلاء الطاهرات دلالة على خطورة هذا الإفشاء، وهن تحت العصمة النبوية، وهو مقدمة تمهيدية للانحراف عن الحق، وتسميته بالصوغ، يعني أن "فيما فعلناه انحرافًا عن أدب المعاشرة، الذي أمر الله به، وأن عليهما أن تتوبا فيما صنعتاه، ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما"(١٢٦). ونظرًا لموقع هؤلاء الطاهرات، بوصفهن نماذج اقتدائية، فقد ورد ضرب المثل، للتحذير من تجاوز المساحة المسموح بالحركة في إطارها. ولهذا جاء الخطاب شديدًا، منتقيًا نماذج الخيانة من واقع الأنبياء، للتأكيد أن الخلل في السلوك الزوجي، قد يصل للمستوى الأعلى، أو ما يصطلح عليه بالخيانة الدينية. وهذا التحذير الصادر عن الحق، يحمل صرامة غايةً في الدقة، في توجيه أمهات المؤمنين من حيثيات هذا الاندفاع، تحت وطأة الدوافع الذاتية غير المؤطرة بضوابط الحق. هذا ما يكشف عنه ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط. ثم قدّم البديل(مواصفات الزوجة المؤمنة)؛ بل الأبلغ من ذلك تقديم نموذج في غاية الخطورة، حتى يثنيهن عن هذه الأخطاء. وإن كانت هذه الإجراءات التأديبية تخص المساحة الزوجية، واهتزاز القلوب بثقل هذه الدوافع. وهو موقف مضاد لآداب العشرة، وغياب الوعي بأبعاد هذا السلوك. وإذا أردنا أن نؤطر مفهوم الخيانة، فإننا نؤكد أن القرآن تناول هذا المفهوم في سياق خاص بزوجات الأنبياء والرسل(خيانة زوجية، وخيانة دينية)، مع المفارقة أن أمهات المؤمنين، يمثلان نموذج الخيرية، وامرأة نوح ولوط يمثلان نموذج الخيانة. وإن

١٢٦- محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٣٥٦.

كان قد عالج ظاهرة الخيانة على مستوى زوجات، لهن موقع متميز في واقع الأنبياء، ولكنه رسم خط التضاد بينهما لاختلاف في الفكر والسلوك، والمواقف والأهداف. وبهذا يرسم نموذج الخيانة الدينية الموسوم بالكفر، ونموذج الكمالية الذي انتهجته زوجات النبي اقتداءً بالسيدة مريم وامرأة فرعون. ومنه، اتخذ مفهوم الخيانة أشكالًا مختلفة.

١- بالنظر في خط نساء النبي، نلاحظ أنهما انطلقتا من موقع الفكرة، التي يتأسس عليها البناء الأسري، وهي: الله ورسوله والدار الآخرة. فقد حدَّدَ لهم الهدف الوجودي. يطلبون الآخرة في ضوء النسق التوحيدي. وهذا مؤشر على استقامة التصور والتفكير، وإن كان الانحراف في الوجهة السلوكية، بما يقتضي إلى إعادة ضبط وتعديل للدوافع الذاتية للمرأة.

٢- قدم القرآن نموذج الكمالية في صورة امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، كمثل أعلى لأمهات المؤمنين، بقصد الاقتداء بهن في الخط الرسالي، والارتقاء في مراتب الخيرية، بوصفهما رمزًا للكمالية العبادية والعفة الأخلاقية. وقد صاغ الله معادلة بيت النبوة في ضوء هذه التقابلية، حتى يضبط توازن الأسرة واختياراتها الأخلاقية في جميع الممارسات العبادية والاجتماعية. هذا يعني "أنه عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، هناك خطر مزدوج، فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع، الذي جسَّد في شخصه مثله الأعلى"[١٢٧]. وفي ضوء هذه النماذج المثالية، يصنع المثل الأعلى، بما ينفتح في وعيه من أداءات نوعية في جهد الإيمان والارتقاء الأخلاقي. وهي دعوة صميمة لمواجهة هذه الميول الفطرية، ودفع تأثيراتها السلبية، والاندفاع نحو نموذج الكمالية.

٣- هناك مفارقة على مستوى الدوافع والأهداف، فقد كان دافع إفشاء السر، هو الغيرة المستبدة بزوجات النبي، هذا الدافع لم يضبط بالتقوى، بما يؤهلهن لحفظ مقام النبوة وأدبه. فمالتا المتظاهرات، وانحرفتا عن أدب الزوجية. وإفشاء السر هنا، ليس موقف مضاد للرسالة، وإنّما

١٢٧- مالك بن نبى، **مشكلة الأفكار**، ص٨١.

يدخل في سياق الخلل في العلاقة الزوجية، وبالمقابل، فإن امرأة نوح وامرأة لوط، كان الدافع للخيانة، هو موقف مضاد للنبوة. وهذا يشكل انحرافًا على خط الإيمان. وقد ترتب عن هذه الخيانة أسوأ العواقب، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[١٢٨]، وفي طي هذين التمثيلين "تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله، بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده، لما في التمثيل من ذكر الكفر. ونحوه في التغليظ في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه، كمثل هاتين المؤمنتين، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه. كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء، حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره[١٢٩]. نصل في الختام، أن القرآن قدم نموذجاً مستقيماً، لمزيد من التطلع وتحريك الإرادة نحو عناصر الخيرية، وامتلاك قوة التأثير في جوهر الفعل الصالح، والتحقق بشروط بناء الفعل الأخلاقي.

٤- بالرغم من تلطف الكثير من المفسرين في التعامل مع الخطأ الصادر عن أمنا حفصة وعائشة رضي الله عنهما، وتقديم أعذار تبدو مشروعة، خاصة وأنّ إفشاء السر ورد في سياق الغيرة الزوجية، ولكن الطريقة التي عالج القرآن بها الموضوع، تبدو غاية في الدقة، لما اتسم به الخطاب من الصرامة الأخلاقية. فقد عاتب النبي عليه السلام، ولم يعذر المتظاهرات في مثل

١٢٨- سورة التحريم، الآية: ١٠.

١٢٩- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ) ط٣، ج٤، ص٥٧١.

هذا السلوك. كما شدّد الخطاب على مبدأ الستر، ليعطي قيمةً لحفظ الخصوصية الزوجية. وإذا كان الله هو مصدر السر، فإنه يعلمنا هذا المبدأ، انطلاقًا من ستر هوية المتظاهرات، وعدم الإفصاح عن ماهية السر. فلا يمكن أن يطلب الله منا حفظ السر ويكشف سر النبي مع زوجه، لأن هذا منافٍ للواقع، والله بوصفه مربيًا لا يطلب من عباده الكتمان ثم يفصح عنه بذاته.

٥- اصطلح القرآن على ما دار بين النبي وزوجه سرًا، حتى يعطي خصوصية للكتمان، ولا يصير الباطن إلى الظاهر، لأنَّ الإفشاء معناه إظهار ما أبطنه. يظهر الله كامل الأدب مع مقام النبوة، بحيث استبطن الخطاب السر النبوي، واستخدم لفظ النبوة بدلًا من لفظ الزوجية في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾(١٣٠)، حتى يعطي شرعية للكتمان ومزيدًا من الهيبة حفظًا لأدب النبوة والعشرة، كما قلل من مساحة إرضاء الزوجة، معيدًا تأطير هذه الرغبات الذاتية، وجعلها في موضعها الصحيح. فما يتعلق بما أباحه الله للإنسان ليس مجالًا للإرضاء، تحت وطأة مراعاة الدوافع الذاتية للمرأة. وإنما المطلوب أن تنضبط الدوافع بضوابط التشريع، لأن هذا الإرضاء غير مبرر شرعًا بدليل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ﴾(١٣١). كما أظهر القرآن الأدب، بانتقاء تعبير غاية في الدقة، في قوله: ﴿بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾، ولم يفصح عن هوية الزوجات، تأكيدًا على مبدأ الستر، وتلطفًا مع أمهات المؤمنين، وتعليمًا لنا أصول الأدب في كتمان السر تخلقًا بأخلاق الله. يقول ابن عاشور: "عدل عن ذكر اسمها ترفعًا على أنَّ يكون القصد معرفة الأعيان، وإنّما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها، مما يحسن تجنب مثله"(١٣٢).

---

١٣٠ - سورة التحريم، الآية: ٣.

١٣١ - سورة التحريم، الآية: ١.

١٣٢- المرجع السابق، ج٢٨، ص٣٥٢.

٦- يثير القرآن الاهتمام بعالم الأفكار، وما تضخه في أوعية الخلق، وليس بالأعيان الظاهرة وتمظهراتها الخارجية، لأنَّ الهدف هو معالجة العطب الذي يصيب أجهزة الإبصار والسلوك. والحدث الذي يدور حوله الخطاب، هو التركيز على محورية الفكرة، ومعالجة الخطأ وتقويمه. فلا قيمة للتفاصيل المتعلقة بأعيان الخلق. وهذا أدب النبوة في معالجة السلوك وتقويمه، دون أن يشير الله إلى هوية الفاعل. ذلك أنَّ ضبط الفكرة وتشفيعها بالحكمة، يحقق للإنسانية حياة أخلاقها، ويفتح الوعي على موارد الفكرة ومستخرجاتها. يبدو أن في عدم التصريح بالأسماء"تعريض بملامها على إفشاء سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه، ومن ثم، الاكتفاء في الملام بذكر ما تستشعر به، أنها المقصودة باللوم"(١٣٣). وتكشف الآيات عناية الله بالنبوة وتفاصيلها بما يزيدها تشريفًا عند الله. ويتخلق النبي بأخلاق الله، متحدثًا ببعض الحديث ومعرضًا عن بعضه، تأدبًا بأدب الله. ومن أوتي جوامع الكلم، يتحدث بميزان النبوة، وهذا من كرم أخلاقه في كيفية تأديب زوجاته، وتكامل أبعاد شخصيته، ورسوخه في الحق. وهكذا تتجلى مصاديق النبوة في جوهره الروحي ورفعة ذوقه وحنوه مع الخلق ورحمته بأهله.

٧- يؤكد القرآن على أهمية ضبط الكلمة، وتوكيد موثوقية الخبر وصدقه، والسؤال عن مصدره. وهذا مبدأ قرآني، ذلك أنَّ السؤال عن مصدر الأشياء، يعني ضرورة تبين حقيقة الأمور لضبط بوصلة القول أو السلوك. واعتبر القرآن أن العلم والخبرة آليات معرفية لضمان المعلومة الصحيحة ومصدر لها. فماذا إذا كان المصدر الذي أظهر الحق هو الله الذي يعلم السر وأخفى. وبهذا يصبح السؤال عن مصدر الأشياء، حقيقةً جوهريةً في المنهج القرآني لبيان حقيقة الأمور ومسالكها الأخلاقية. وقد كانت أمنا حفصة في توجيه السؤال للنبي ضمن النسق العلمي السليم. ويأتي جواب النبوة في غاية الروعة والإمكان، لأن المعلومة تجاوزت المعطيات الأرضية، التي تتجاذبها ثنائية الصدق والكذب. ويخرج المصدر الأرضي بجميع سياقاته

١٣٣- محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص٣٥١، ٣٥٢.

الإيجابية والسلبية. ويؤكد النبي أن المصدر المنتج للمعلومة هو الله، وصدق الخبر هو إيمان وتصديق بجواب النبوة، ومن هنا، أصبح العلم والخبرة آليات معرفية لإنتاج الكلمة والحكم عليها بناءً على معطيات العلم والإيمان. يقول ابن عاشور: "لما فيها من التذكير بما يجب أن يعلمه النّاس من إحاطة الله تعالى علمًا وخبرًا بكل شيء، والعليم القوي العلم، وهو في أسمائه تعالى، دال على أكمل العلم أي العلم المحيط بكل معلوم"(١٣٤). ومعلوم أن "الخبير أخص من العليم لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله"(١٣٥). والعبرة من هذه القصة، أن الله حرص على تربية خلقه على جملة من القيم التربوية الكفيلة ببناء خطاب تواصلي سليم في دوائر الخطاب عمومًا، والدائرة الزوجية خصوصًا. ومن هنا، أعطى القرآن قيمة لحفظ الأسرار في هذا السياق، وأصحاب السر، هم ذخائر الله في الأرض، وهم من"علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم"(١٣٦).

٨- إذا دققنا في الخطاب، نلاحظ انتقاد السلوك الزوجي؛ الذي ينافي الأدب والعشرة، داعيًا زوجات النبي إلى التوبة، وتصفية القصود من كل الشوائب، التي تعكر صفاء القلوب عن رؤية الحق ، وتخليص إرادتهن العملية من الدوافع الذاتية، بعد أن أخلصن إرادتهن النظرية لله ورسوله. خلاصة القول، أنَّ القرآن يعلمنا مبدأ الستر في الشؤون الذاتية والأسرية، ولعل الهدف من إثارة التساؤل، حتى يزيد في وعي المتدبر التبصر في المعنى، وتوجيه التفكير لاستبطان الدلالات المخبوءة في منجم القرآن وتدفقاته المعرفية. فضلًا عن هذا، فإنّ الله بوصفه المربي الأول، ينزع بالسلوك الزوجي لمزيد من النظر في مدى جسامة الخطأ في حقه عليه السلام، والشعور بثقل المسؤولية. كما توحي بأن الله يعتني بالمسيرة النبوية في جميع مستوياتها.

١٣٤- المرجع نفسه، ج٢٨، ص٣٥٤.

١٣٥- المرجع نفسه، ج٢٨، ص٣٥٤.

١٣٦- ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج٣، ص١٦٣.

ويطلع نبيه عما شاء من الغيب، ويحجب عنه ما يشاء. يبدو من الخطاب، أن الله لم يقف عند نقد الموقف، وإنَّما قدم العلاج لتعديل هذا السلوك في سياق تشريعي محكم، تبعًا لمعطيين هما: التوبة أو التهديد بالطلاق. وقد سبق الحديث عن آلية التوبة وموقعها في تعديل السلوك. ونركز هنا، على قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[١٣٧]، تؤكد هذه الآية على القوى الداعمة لمحمد عليه السلام، تجمع بين الملأ الأعلى والأسفل. وقد عدَّد الله هؤلاء المناصرين لخط النبوة، وهم: الله، جبريل، والملائكة، صالح المؤمنين. ثم قدم البديل الأخلاقي الذي انتخبه الله بمواصفات الخيرية، غاية في الانضباط والكمالية الأخلاقية، وهو يحذر من الاستبدال في حال عدم توبة المتظاهرات، لما للتوبة من تأثير فاعل في ضبط السلوك وتقويمه. ولهذا يحرص القرآن على بيان مسؤولية الأسرة على المستقبل الأخروي للذرية الصالحة، وتربيتهم على الأهداف العبادية، ليكون المآل في نجاة الأسرة. ثم أعاد طرح مفهوم التوبة في سياق مجتمعي لتعديل السلوك وتقويم الأخطاء، على أن تكون خالصةً لضبط الكينونة الداخلية والخارجية للإنسان.

إنَّ ضبط الطاقة وتوجيهها بمبدأ التوبة وربطها بالمصير وعواقب الفعل، يعني أصالةً محورية مفهوم التوبة في المنظومة الأخلاقية، ومن ثم، توجيه الفكر والسلوك ضمن ضوابط الطاعة. والابتعاد عن الذنوب التي تزري بالوجود، وتبدد قيمته يوم الدين. وهنا نستحضر، أنَّ القرآن وصل الأسرة النبوية بمقتضيات النبوة، لضبط هذه الوصلة وسلامتها. وأكد على ضرورة تقوى الله في الذرية والأهل لضمان مستقبل الخلود. وشرّع التوبة في حالة حدوث أي خلل أو مطبات في السلوك ، ولكنه اشترط التوبة النصوح، التي تجعل القلوب صافية من جميع الشوائب، وإخلاص القصود لله، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

١٣٧ - سورة التحريم، الآية: ٠٤.

وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(١٣٨).كما أشار إلى الوصلة بالنبوة ومستخرجاتها الجمالية يوم الخلود، بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(١٣٩). عصارة القول، أن الوصلة الزوجية لامرأة نوح وامرأة لوط، لم تنقذهما من سوء العاقبة. إنَّ هذه الوصلة غير مؤسسة على قانون الإيمان، بقول ابن قيم الجوزية: "أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين عن لحمة نسب، أو وصلة صهر، أو سبب من أسباب الاتصال. فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما"(١٤٠).

خاتمة:

إذا أردنا أن نضع خلاصة مجملة لهذه الدراسة، يمكننا القول، أنها تناولت مواصفات النموذج الكامل في ضوء سورة التحريم. وبشكل مفيد، نؤكد أن طرق هذا الموضوع له أهمية كبيرة في المحافظة على الشأن الأسري، وضبط بوصلة الأسرة المسلمة في ضوء المعطيات التشريعية والأخلاقية التي قامت عليها الأسرة النموذج. فقد أراد الله صياغة المشروع الأسري من خلال تأطير البيت النبوي، ورسم الهدف الأسمى لهذا البناء، وتحريره من جميع الارتباطات الدنيوية التي تحمله على الخلود للأرض، وتحول دون التحقق بالمهمة العبادية والارتقاء بالفعل إلى مستوى الفعل الأخلاقي. وعالج البحث بعض الأفكار المهمة، منها: اختبار الإرادة العملية لأمهات المؤمنين بعد اختيار وجهة الله ورسوله، وتمحيص هذه الإرادة في مدى الثبات على مقتضيات الإيمان ومتطلبات العبادة، وضبط الدوافع الذاتية حتى ينصهر هذا النموذج للتقوى. كما ناقشت الآيات الفكرة الثاوية

---

١٣٨ - سورة التحريم الآية: ٠٨.

١٣٩ - سورة التحريم الآية: ٠٨.

١٤٠- ابن قيم الجوزية، **التفسير القيّم**، ج١، ص٥٤٨.

خلف هذه التوجيهات، وضبط السلوك الزوجي بإعادة تربية الزوجة على حفظ الخصوصية، والابتعاد عن جميع السلوكيات التي تضرب صميم العلاقات الزوجية. والأبلغ من ذلك إعادة ضبط الدوافع الذاتية بكوابح، تعيد للسلوك الزوجي استقامته. كما أبرزت البديل الأخلاقي (نموذج الكمال) بهدف وضع البيت النبوي على طريق الخيرية. وهذا الكمال لن يتأتى إلَّا بتحرير الأسرة النموذج من جواذب الزينة الدنيوية، وخدمة الهدف الأسمى. فلا تحاصرها الأهداف الضئيلة، وتنشد الفضيلة في أرقى صورها.

وقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١- قدمت الآيات البديل المستقيم الذي يبلغ بالأسرة النبوية رتبة الكمالية، ويجمع السمات المميزة لمواصفات الخيرية في ضوء القرآن الكريم.

٢- إنَّ المتتبع لهذه الآيات، يدرك أنَّ القرآن في منهجه المعرفي، ينتقد الفكرة ويعالج الخلل ويقوم بتعديل السلوك حتى يثوي للفكرة الصحيحة، ولا يتماهي مع الأشخاص، مهما بلغت درجة قربهم من الأنبياء.

٣- تعتبر هذه الآيات نقلة فارقة في مستويات الخطاب القرآني بتأطير الأسرة النبوية وتنظيم الدوافع الذاتية للعلاقات الزوجية، وحماية الخصوصية الزوجية في سياق قيمي تحكمه التقوى وتسديد الأسر المسلمة نحو مقاصد الشرعة والمنهاج.

٤- يمثل البيت النبوي مركز إشعاع حضاري للأمة، يشرف على أهداف الرسالة ويحيا على خط العبودية، ولا تحكمه الأهداف الضئيلة ولا تتجاذبه الأهواء ومتطلبات الفانية. ويستقيم على ضوابط المنهج والحكمة. ويسعى القرآن إلى تربية جوهر أمهات المؤمنين بالتقوى، والسعي للعمل بالصلاح وسد الخلل بالتوبة، بما يحقق مقتضيات العمران، والمتطلبات التكليف.

٥- تطرح سورة التحريم البديل الكامل، ممثلًا في رمز الكمالية السيدة مريم وامرأة فرعون بهدف ضبط بوصلة أمهات المؤمنين للارتقاء في مواصفات الخيرية وبلوغ رتبة الكمالية، اقتداءً بهن

على خط العبادة والفضيلة الأخلاقية.

٦- إسقاط جميع النماذج المنحرفة في مضامينها الروحية والأخلاقية، بمقتضى فقدان الوصلة التوحيدية بالله، وضوابط الشرعة والمنهاج. وقد كان مضرب المثل بنموذج الخيانة، ممثلًا في صورة امرأة لوط وامرأة نوح، وما ينطوي عليه من تحذير شديد من خطورة الاندفاع تحت وطأة الدوافع غير المؤطرة والوقوع في هذا المسلك المنحرف.

٧- يعالج القرآن مسألة الخيانة الزوجية على مستويين، أما المستوى الأدنى، فيمثل الخيانة في الدائرة الزوجية، وإفشاء بعض زوجات النبي للسرّ، واصطلح القرآن على تسمية ذلك إنباءً، وليس خيانةً، تلطفًا وتقديرًا لسلامة المقاصد والنوايا، ومكمن الخلل في عدم التحكم في الدوافع الذاتية، بما يتطلب ممارسة الضبط عن طريق آلية التوبة، وأما المستوى الأعلى للخيانة (الخيانة الدينية) فكان مضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط، وما يتسم به هذا النموذج من مستويات عالية في الانحراف.

وبناءً على ما قدمناه، سوف تفتح هذه الدراسة آفاقًا جديدةً في دراسة الأسرة النموذج، وترقية الأسرالمسلمة في مراتب الخيرية لتحسين مردود النسل الصالح، والعودة بالأمة إلى حظيرة الإيمان والتقوى وممارسة العفة الأخلاقية. تبقى هذه الدراسة هي مجرد حلقة بحثية في دراسة هذا الموضوع، فإننا ندعو إلى تعميق البحث في مواصفات نموذج الكمالية، الذي يطرحه القرآن بديلًا أخلاقيًا لترقية المرأة المسلمة في جميع مستوياتها الفكرية والأخلاقية، بهدف بناء منظومة أسرية متماسكة، والتطلع إلى إعداد جيل مسلم يحفظ الخصوصية الثقافية والحضارية للأمة المسلمة.

Bibliography

- **Al-Quran.**

1. Muhammad – AL-Thaher bin Achour , al **Tahrir wa Atanwir,** Tunisi: Dar tunisian, without Edition, 1994 AD.
2. AL- Mawardi, **Anokat wal aeuyun**n, Beirut: Dar AL- kutub AL- ilmiah, without Edition, and Date of publishing.
3. Al- zarkhashi, **Al burhan Fi uloom ul Quran**, Beirut: Dar iihya Al-kutub al-arabia, Edition,1, 1957AD.
4. Mustafa Muslim, **The Muslim family in the light of Surat ul Tahrim**, Mecca Dar Al- Manara, without Edition, 1991 AD.
5. Syed, Qutb, **AL- dilal**, Beirut: Dar Al- Shourouq, 1412 AH.
6. Al- Ragheb Al- Isfahani, **Al mufradet**, Damascus, Dar ul- Qalam, 1412AH.
7. Muhammad Al- Ghazali, **Nahwa Tafsir Maoudoui Quran**, cairo, Dar Al- Shourouq, without Edition, 2010 AD.
8. Ibn Al – Qayyim, **Madardju salikin**, Beirut: Dar Al- kitab, Edition, 3, 1996AD.
9. Aisha Binte Abdul Rahman, **women of the Prophet,** Beirut: Dar Al-kitab, without Edition, 1979 AD.
10. Ahmed Ibn Hanbal, **Al- Musnad**, Ressala Foundation, Edition,1, 2001 AD.
11. Muhammad Al- Ghazali, **Women's issues**, Beirut: Dar Al- Shourouq, Edition,7, 2002 AD.
12. Fazl ur Rahman Malik, **Major issues in the Qur'an**, Beirut: Djadawil of publishing, 1Edition, 2013 AD.
13. Ibn jarir Al-tabari, **Jamie ul Bayan li ahkam ul Quran**, Dar Hajar, Edition, 1, 2001 AD.
14. Al Razi, **Mafatih ul ghaib**, Beirut: Dar iihya Al- Tourath Al-arabi, Edition,3, 1420 AH.
15. Al Buquahi, **Nadem Al Durar**, Cairo: Dar Al- Dar Al- kitab, Al- Islami, without Edition, and date of publishing.

16. Ibn, taimiyyah, **Al- Iman**, Beirut: The Islamic office, without Edition, 1996 AD.

17. Ibn Al – Qayyim, **Benefits**, Beirut: Dar Al- kutub, Edition, 3, 1973AD.

18. Ibn Manzur, **Lisan ul Arab**, Cairo: Dar Al- Hadith, without Edition, 2003 AD.

19. Ibn Fares, **Maqayis ul lughat**, Cairo: Dar Al- Hadith, without Edition, 2003 AD.

20. Ibn, taimiyyah, **Al**, aleubudia, Beirut: The Islamic office, without Edition, 2005AD.

21. Muhammad Al- Ghazali, **Khuluq ul Muslim,** Cairo: Dar Al-Rayyan, without Edition, 1982 AD.

22. Muhammad Rashid Rada, **Al Manar**, Egypt General Authority without Edition, 1990 AD.

23. jamel Adine Al khasimi, **Mahasin Al Taawil,** Beirut: Dar Al- kutub, Edition, 1, 1973AD.

24. Abu Zahra, **Zahrat ul tafasir,** Dar ul- fiker Al- arabiu, without Edition, and Date of publishing.

25. Khalis Djalabi, **My Philosofy**, Damascus: Center for Cultural Criticism, Edition, 1, 2009 AD.

26. Shanqeeti, **Adwa' ul bayan**, Beirut: Dar ul fiker, without Edition, 19995AD.

27. Al- Zamakhshari, **Al Kashaaf**, **,** Beirut: Dar ul Kitab, without Edition, 1407AH.